

من مؤسسة وصف مصر

(٢)

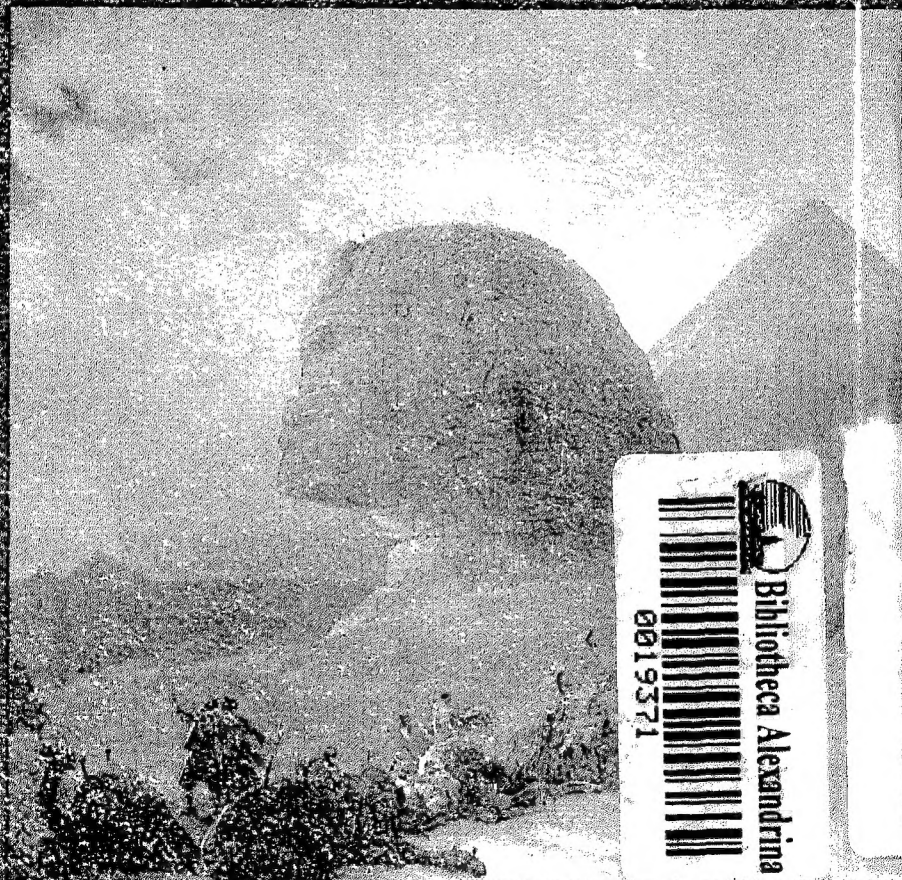
مدينة الإسكندرية

ترجمة

زهير النايب

تأليف

جراتيان لوبيز



Bibliotheca Alexandrina



0019371

من موسوعة وصف مصر

(٢)

مدينة الإسكندرية

ترجمة : زهير الشايب

تأليف : جراتيان لوبيير

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

سبق أن صدرت أولى تلك الدراسات التي وقع عليها الاختيار من الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر ، وكانت تحمل عنوان : " كيف خرج اليهود من مصر القديمة " ، و الآن مع الدراسة الثانية ، وهى عن " مدينة الإسكندرية " ، وفيها عرض الكاتب وصفاً للحالة الراهنة التى كانت عليها المدينة عند قدوم الجيش الفرنسى فى نهاية القرن الثامن عشر ، ثم عرض حالتها القديمة وقت أن كانت صاحبة مجد وازدهار تحت حكم الإغريق و الرومان ؛ ثم أعقب ذلك بمناقشة لما قدمه المؤرخون القدماء مع مقارنة بالوضع الراهن للمدينة .

ونحن إذ نقدم هذه الدراسات نُذكر أن كل دراسة مقدمة تكون على النحو الذى جاءت به فى الترجمة الكاملة دون زيادة أو نقصان ، وأن سعيها هذا ما هو الا إرضاء لمختلف الدارسين و القراء ، فى أن يقتنى كل ما يخصه أو يميل إليه من تلك الموسوعة الضخمة بطريقة سهلة ميسرة .

وبالله التوفيق ..

هنس زهير الشايب

— —

لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية ؛
وأضحت مذابح الآلهة مرتعا للزواحف الدنسة ..
أه !

كم من مجد أقل نجمه ،
وكم من المنشآت قد اندثر !
هكذا تفنى أعمال البشر ،
وهكذا ...
تغرب شمس الامبراطوريات والدول .

فولني Volney من كتابه :

« تأملات حول سقوط الامبراطوريات »

أصبحت الأسكندرية فى عهد البطالمة - خلفاء الاسكندر، مؤسسها الذى منحها اسمه - عاصمة لمصر، ومركزا لتجارة الهند، وارتفعت فى عهد الامبراطورية الرومانية إلى مرتبة المدينة الثانية فى العالم، وظلت تحتفظ بمكانتها، مع ما ظل لها من مجد وعظمة، كأغنى مستودع للمعارف الإنسانية. ومنذ استقرار المسيحية وحتى عصر الامبراطورية الواطنة، كانت كنيسة الأسكندرية أولى كنائس الشرق واحدة من مدن المسيحية الحصينة فى هذه المنطقة، لكن السطوة التى كانت لها والتى تزعزعت على يد القنصل العام الثانى، قد سلبت منها كلية على يد القنصل الثالث، لتنتقل منها إلى القسطنطينية، على الرغم من معارضة البابوات، وأخيرا سقطت الأسكندرية بعد أن عانت طويلا من التمزقات-فى قبضة العرب الحديدية حملة الدعوة الإسلامية، ولم تتوقف منذ ذلك الحين عن الانحدار نحو الهاوية. وإذا كانت لا تزال بها اليوم بقية من حياة، فيمكن القول بأنها قد تضاعلت - بعد أن عانت طويلا طيلة اثنى عشر قرنا - فى عهد الامبراطورية

العثمانية، فلم يعد يعيش بها سوى شعب صغير، لا يزال يقيم وسط خرائبه وتراب مقابره، ونحن نكتفى هنا بأن نستعيد، باختصار، أهم العهود والتطورات التي مرت بهذه المدينة الشهيرة، فى حويلات العالم.

فى العام الـ٤٢٢ من تأسيس روما، الأول من الأولبياد الـ١١٢، والعام الـ٣٣٢ قبل الميلاد، لم يكن أمام فاتح أسيا والهند، إلا أن يستولى على مصر، لى يحكم سيطرته على هذه المنطقة، وأن يُنشئ فيها المدينة الجديدة التى حملت اسمه، والتى علت وتدعمت بعظمة لمدة ثلاثمائة عام فى عهد الحكام البطالمة، خلفائه.

وفى العام الـ٧٠٦ من تأسيس روما، أى السابع والأربعين قبل الميلاد، استولى يوليوس قيصر على الأسكندرية، وأعمل فيها الحديد والنار، انتقاماً من دفاع سكانها العنيد.

وفى العام الـ٧٢٣ من تأسيس روما، وهو العام الثلاثون قبل الميلاد، مر بمصر أوكتافىوس أغسطس، ليطارد أنطونيو

وكليوباترا، واستولى على المدينة، وتحت أسوارها قضى إلى الأبد على عدوه الذى لم تكن تفتر له همة.

وفى عامى ٢٦٩ و ٢٧٥ من العصر الحديث، كان على هذه المدينة أن تتحمل فترتى حصار طويلتين وبأستين، وذلك فى عهد الامبراطورين: كلود الثانى، وأورليان.

وفى عام ٢٩٨ حاصر الامبراطور دقلديانوس Dioclétien المدينة واستولى عليها، ولقد كان يجد فى الحصول عليها، على الأقل لتعويض خسائره.

وفى عام ٦١٥ استولى الفرس على الأسكندرية، واندفعوا نحو أفريقيا عن طريق البنتابول (*) الليبى.

(*) Pentapolis وهو الاسم الرومى المقابل لكلمة أنطابلس Antapulus العربية؛ ويعنى هذا الاسم: المدن الخمس؛ وتذكر كتب القبط أنه يعنى المدن الخمس جهة الغرب؛ ويطلق جغرافيو العرب على مجموعة المدن الخمس المذكورة اسم إقليم برقة، ويظن بعضهم أن برقة أو أنطابلس اسم مدينة، والصواب أنه اسم إقليم يشتمل على خمس مدن، هى: بنغازى Berénice؛ طوقرة Tokhira؛ طلميته Tolimaïs؛ قرناه وهى الآن قيرينا Cyréne ويسمونها باريتشى أى باريس؛ درنه Adirnai.

وفى العام العشرين من الهجرة أى ٦٤٢ من العصر الحديث، قام مبعوث الخليفة عمر، وهو عمرو الريحب، وبعد أربعة عشر شهراً من الحصار والقتال العنيد بين كلا الجانبين، باقتحام المدينة وقلبها رأساً على عقب.

وفى عام ٥٦٢ من التقويم الهجرى أو سنة ١١٦٧ ميلادية حاصر الأفرنج المدينة واقتحموها، لكن السلطان صلاح الدين طردهم منها فى العام التالى.

وفى سنة ١٢٠٢ ميلادية استولى البنادقة على الأسكندرية، واستعادت المدينة تحت سيطرة هذه الجمهورية، التى كانت قوية فى ذلك الوقت، بعض ازدهارها بسبب

= أما القرية التى يطلقون عليها اسم برقة فهى قرية المرج الواقعة بين هذه المدن الخمس فى منطقة أراضى الجبل الأخضر ببرقة الذى يسميه الفرنجة Cyrénaique نسبة إلى Cyréne التى كانت قاعدة له قديماً.

نقلا عن القاموس الجغرافى للأستاذ محمد رمزى، الجزء الأول، البلدان المدرسة. (المترجم).

التجارة التى قامت بها عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى.

وفى سنة ١٢٥٠، وبينما كان لويس التاسع يتباحث فى أمر افتداء نفسه من سلطان مصر، استولى ملك قبرص من جديد على هذه المدينة وخربها.

وفى عام ٧٦٧ من الهجرة أو ١٣٦٧ ميلادية، غزا الفرنجة المدينة من جديد وانتهبوها.

وعلى الرغم من هذه الكوارث الجمة، فقد ظلت الأسكندرية مزدهرة حتى نحو نهاية القرن الرابع عشر، حسبما يذكر أبو الفداء، الذى قام بزيارة لها فى عام ١٣٨٣.

وفى عام ١٥١٧، استولى السلطان سليم على هذه المدينة من يد حكام مصر وسوريا الذين كانوا مستقلين عن الباب العثمانى، ومنذ هذه الفترة، يبدأ تاريخ أكبر تغيير جلب الانحدار والخراب الكامل إلى هذه المدينة.

وفى الرابع عشر من ميسيدور من العام السادس
لتأسيس الجمهورية الفرنسية (٢ يونيه ١٧٩٨) أى العام
١٢١٣ الهجرى، استولى الفرنسيون من جديد على
الأسكندرية تحت قيادة بوناپرت، فلم يكد هذا القائد ينزل
على الساحل الأفريقى حتى تقدم للهجوم على المدينة، ولا بد
أن أسلافنا، سوف يصعب عليهم أن يصدقوا أن ثلاث
ساعات فقط كانت كافية لكى يتمكن ثلاثة آلاف من الفرنسيين
أن ينتصروا، وأن يستولوا على هذا المكان، الذى كان الباب
العثمانى ينظر إليه باعتباره الطريق لإمبراطوريته فى أفريقيا
ومع ذلك، فمع اعترافنا بأن جدران أسوار هذه المدينة لم تعد
منذ وقت طويل سوى مجرد أثر من آثار قوتها فى الماضى،
فإننى أعيد إلى الأذهان أنه، قبل ذلك باثنين وعشرين يوماً،
لم تصمد عاصمة لجزيرة اشتهرت منذ القدم بأنها عسيرة
الغزو، ولا يمكن فى الحقيقة قهرها بسبب حصونها، وهى
جزيرة مالطة، لم تصمد سوى يوم واحد أمام الهجوم
المفاجىء لجيش بحرى كان وجود قائده سبباً فى انتصاره،

وبعد سيطرة القائد المظفر على هذا المكان، الذى يعد مفتاحاً لمصر من جهتها الغربية، غادرها بعد عدة أيام قضاها فى استعدادات حربية لاستكمال حملته. وكانت إحدى هذه الاستعدادات تقتضى من مختلف فرق المهندسين فى الجيش (الفرنسى) التعرف على المدينة، وعمل خريطة لها. وهنا نستطيع بحق أن نقول بأنه بعد البطل العبرى الذى أسسها ومنحها اسمه، قد جاء اسكندر آخر بعد واحد وعشرين قرناً، ليعيد إليها ازدهارها القديم.

ذلكم هو موجز تواريخ الأسكندرية، ورغبة منا فى ألا نؤذى عيون القراء بالصفحات الدامية من تاريخ اضطرابات هذه المدينة، والتي اقتصرنا على تسجيل أبرزها، فسوف نقدم وصفاً لحالة المدينة كما وجدها عليها الفرنسيون بينما القرن الثامن عشر يوشك على نهايته.

ولكى نفهم هذا الوصف ينبغى أن يكون تحت أبصارنا الخريطة العامة للأسكندرية التى ألحقها المسيو لوبيير، أخى

الأكبر، بدراسته عن القناة التي تربط بين البحرين^(١). وإلى هذه الخريطة الطبوغرافية التي يسمح مقياس رسمها بتبين الآثار القديمة لهذه المدينة، ظننت أن من الواجب على أن أضيف بمقياس رسم أصغر، تخطيطاً، أو بالأحرى خريطة عامة تقدم في نفس الإطار خليجها، وميناعيها، وأحياءها، وضواحيها.

(١) انظر الخريطة العامة للمدينة والميناعين، الدولة الحديثة، المجلد الثاني، اللوحة ٨٤، وكذلك تلك الدراسة عن القناة التي تربط بين البحرين، الجزء الثالث، الفصل الخامس، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٣٨، ١٣٩ والذي رد فيه المؤلف إلى السادة المهندسين، المدنيين والعسكريين، وبالأسم، الفضل في الجزء الذي قاموا به في هذا العمل المبدئي الذي قام به الفرنسيون في مصر. وهذه الخريطة التي عملت باكبر قدر من العناية في كافة تفاصيلها، والتي رسمت بدرجات مختلفة، قد رسمت بمقياس ٠,٠١ من السنتيمتر لكل ١٠٠ متر أى ٠,٠٠١, على الطبيعة. أما الخريطة العامة للخلجان والموانئ والمدن التي قمت برسمها لفهم هذه الدراسة (انظر اللوحة ٣٢ من المجلد الخامس) فقد رسمتها بمقياس رسم ٠,٠٠٤ ملليمتر لكل مائة متر، أى ٠,٠٠٠٤ = $\frac{1}{25000}$ من الحجم الطبيعي. وسنرى أننى بتجميع كل المعطيات الناتجة عن العمليات الجغرافية لمهندسى الجيش الفرنسى كنت أسعى إلى إعطاء هذه الخريطة التي يعود تنفيذ رسمها الرائع إلى عناية المسير كولان M. Collin كل التفاصيل مع كل ما تحتويه من فائدة.

إذن فبمعونة من هاتين الخريطتين، سوف نمسح موقع هذه المدينة القديمة، وسوف تمتد هذه الأبحاث لتشمل كل الآثار التي يجدها المرء هناك.

وحتى نعالج الأمر بنظام ووضوح فسأقسم دراستي إلى جزئين أو قسمين :

الجزء الأول : وسيكون وصفاً مبسطاً للأماكن في حالتها الحديثة، أى في الحالة التي وجد عليها الجيش الفرنسى هذه المدينة عند استيلائه على مصر.

أما الجزء الثانى : فسيكون مناقشة مقارنة ومدعومة عن الحالة الحديثة والحالة القديمة، وسنحدد فى هذه المناقشة الآثار التي ستكون فى نفس الوقت شاهدة على ثراء وعظمة هذه المدينة القديمة : إذ ترتبط هذه المناقشة بالآثار شديدة الشهرة، وسننهى هذه الدراسة بلمحات عامة حول إمكانية ترميمها.

* * *

الجزء الأول

الحالة الحديثة لمدينة الإسكندرية تحت حكم امبراطورية الباب العثمانى

١- تقع مدينة الإسكندرية، وهى التى تسمت باسم مؤسسها الإسكندر، عند الطرف الشرقى للساحل الأفريقى، وقد بنيت فوق كتلة من الرمال ربطت القارة بجزيرة فاروس القديمة، وهذه الجزيرة التى أدت عمليات الردم إلى تحويلها إلى شبه جزيرة تحمل نفس الاسم القديم، تشمل المدينة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى، ومينائها الطبيعيين - وهما الميناءان الوحيدان اللذان تمتلكهما مصر - وذلك لمسافة ستين فرسخا من سواحل البحر المتوسط.

وإليك موقع المدينة تبعا لمعلومات قدمها السيدان نوى Nouet وكسنو Quesnot الفلكيان بجيش الشرق :

| | | | |
|------------------------------|----|----|----|
| خط الطول (شرق خط زوال باريس) | ٢٠ | ٢٥ | ٢٧ |
| خط العرض (شمالا) | ٥ | ١٣ | ٣١ |

وتحد أرض الإسكندرية التى تلامس فى الشمال البحر الأبيض، جنوباً، بحيرة ماريوتيس القديمة (مريوط) التى كان حوضها الواسع قد جف تماماً فى المدة التى استولينا فيها على مصر، بينما تغزوه الآن مياه البحر. وتدفق مياه البحر هذه والتى تعود كارتتها لمجهودات تلك القوة الأوربية، غريمتنا فى السلم ومنافستنا فى مجال العلوم والفنون، كما هى عدوتنا الأبدية فى الحرب (بريطانيا)، ربط من جديد وبطريقة لا لبس فيها أرض هذه المدينة بشبه الجزيرة التى تكونها سلسلة متتابعة من الحجر الجيرى، والتى تمتد من رأس أبى قير فى الشرق إلى ما وراء برج العرب على بعد ثمانية ميريامترات ، إلى الجنوب الغربى.

٢- وأول مينائى الاسكندرية، الذى تقابله السفن القادمة من جهة الشرق عند وصولها إلى هذا الجزء من الساحل الأفريقى، هو الميناء القديم، ويقع فى جنوب خليج فسيح يتكون من سلسلة من صخور تختبئ جزئياً تحت المياه وتظهر جزئياً على سطحها، ويمتد قاع هذه الشعب الصخرية من

رأس الشيخ (العجمى) حتى رأس التين الواقع على أقصى نقطة إلى الغرب من شبه جزيرة فاروس حيث الفنار، بطول ٨٣٠٠ متر (٤٢٥٨ قامة، ٣ أقدام).

ولهذا الخليج ثلاثة ممرات طبيعية، أسهلها وأعمقها، على الرغم من تعرجه وعدم استواء قاعه، هو الممر المسمى بالأوسط، ومع ذلك فإن الجزء الذى يقع منه ناحية الشيخ لايزيد عن ثلثه، ويبلغ عرض هذا الممر حوالى ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر، ويبلغ عمقه فى أكثر أجزائه ضحالة من ٥ إلى ٦ باعات (الباع = ١٦م)، وهو الوحيد القادر على استقبال الفرقاطات والسفن البحرية بدون بطارياتها، وقد ظن ضباط بحريتنا أن كل سفينة لا يزيد غاطسها عن ٢٣ قدماً بعد إنقاص تباينها إلى الصفر، يمكنها أن تدخل الخليج عن طريق هذا الممر فى حالته الراهنة، وبدون أية تجهيزات، وسنظل نقرأ على الدوام بشغف ذلك الكتاب الذى أرسله الأميرال برووى Brueye إلى الحكومة الفرنسية، قبل عدة أيام من معركة أبى قير البحرية، ونورد هنا، فى الهامش، هذا الكتاب الذى يحتوى - من حيث

علاقته بموضوع دراستنا - على معلومات من المهم الإلمام بها
لخير الملاحة^(١).

أما الممران الآخران المساعدان فيبلغ عمق مياههما ٣
إلى ٤ باعات، لكن اتساعهما وعمقهما غير مستويين،

(١) كتاب الأميرال برووى Brueye ، قائد الأسطول الفرنسى فى
حملة مصر، والموجه إلى حكومة الإدارة للجمهورية الفرنسية:
من ظهر سفينة الشرق L'orient ، بخليج أبى قير، فى ٢١
ميسيدور من العام السادس (٩ يوليه ١٧٩٨):
فى التاسع عشر من ميسيدور، وبعد أن عرفنا أن السفن لاتستطيع
أن تدخل الميناء بسبب ضحالة المياه عند مدخله، رفعت أشرعتى ومعى
١٣ سفينة وثلاث فرقاطات كى نلقى رواسينا فى خليج أبى قير، وهذا
الموقع هو أكثر المواقع التى يمكن الحصول عليها منعة فى خليج
مفتوح، حيث لا يكون بمقدور أحد أن يقترب من الأرض لحد يكفى
لإقامة البطاريات، وحيث لاتستطيع سوى سفينتين معاديتين أن تصلا
إلى المسافة التى تناسبهما، وإنه لأمر مرعب ألا يكون للأسكندرية ميناء
تستطيع السفن أن تدخل إليه؛ فالميناء القديم الذى حظى بمديح
الكثيرين، تغلقه شعب الصخور البارزة فوق سطح المياه أو المخفية
تحته لتشكل مداخل بالغة الضيق لا يزيد اتساع أى منها عن ٢٣ إلى
٢٥ أو ٥٠ قدماً من المياه، والبحر هناك فى العادة عال، ومن هنا نرى
أن سفينة مزودة بـ ٧٤ مدفعاً ستكون معرضة تعريضاً شديداً للخطر؛ إذ
ستتحطم بعد ١/٤ ساعة من إصابتها. واستجابة منى لرغبات القائد =

واتجاههما متعرج ، وقاعهما ملء بالأعشاب الصخرية مما يجعل الرسو فيهما صعباً؛ وثمة ممر أخير، يقع إلى أقصى الشرق، وهو غير صالح إلا لدخول الزوارق والسفن الصغيرة التي تقوم بالتجارة بين مدن السواحل.

أما الرياح التي تسهل أكثر من غيرها الدخول إلى الممرات، فهي تلك التي تهب فيها بين غرب الجنوب الغربى وشرق الشمال الشرقى مارة بالشمال، وحيث إنها رياح شبه دوارة فهي تؤدي إلى حدوث دوامات تجعل من مغادرة الممر أمراً شاقاً، وفي الواقع فإنه يحدث فى بعض الأحيان، أن تضطر السفن إلى الانتظار، وبخاصة فى موسم الرياح

= العام فقد عرضت ١٠ آلاف فرنك لأى ملاح من أهل البلاد يستطيع أن يمرر الأسطول، لكن أحداً لم يشأ أن يتعهد إلا بالسفن التي يبلغ غاطسها ٢٠ قدماً على أكبر تقدير؛ ومع ذلك فانى أمل أن نتوصل إلى ممر نستطيع عن طريقه أن ندخل سفننا ذات الـ ٧٤ مدفعا، ولن يكون ذلك إلا ثمرة لجهودات بالغة الصعوبة، وبعد ذلك قد نستطيع أن ندخل دون أخطار كبيرة، وقد يزيد عمق القاع عند الشعب الصخرية إلى ١٥ باعاً، ومع ذلك فسيظل الخروج على الدوام بالغ الصعوبة ويستغرق وقتاً بالغ الطول.

وعلى هذا، فإن هذا المكان بالنسبة لأية سفينة هو مكان بالغ السوء.

العنيفة، أشهرها بأكملها حتى يمكنها مغادرة الخليج.

وعندما تلقى البصر على هذا الخليج، الذى يسمح له عمقه واتساعه أن يستقبل الأساطيل كبيرة العدد، فإننا لنأسف لأن الطبيعة التى فعلت الكثير كى تزوده بشاطئ واطئ لا يمكن الوصول إليه من أية نقطة أخرى من الساحل، لم تكمل صنيعها فتوسع من ممراته التى يمكن الدفاع عنها دون كبير عناء.

أما الصخور التى تشكل قاع هذا الخليج فهى من طبيعة جيرية، ويمكن ببعض المجهودات الفنية التوصل إلى إعطائها اتساعاً أكثر وعمقاً أكبر^(١)، ويستطيع المرء أن يتصور أية

(١) يعتقد أنه عن طريق بعض الجسور العائمة المسلحة ببطارية ذات أجراس، ومسلحة بمطارق معدنية تقام فوق قطع طويلة وقوية من خشب البلوط، ومسلحة بسبائك من الحديد المدبب والقاطع، يمكن التوصل إلى تقويض وتحطيم وإنقاص تنوعات الصخور البارزة تحت خط الشعب الصخرية فى الممرات.

كما يمكن بطريقة أسهل أن نزيل وأن نرفع أنقاض وركامات هذه الصخور لتطهير قاع الممرات بواسطة جهاز للغواصين، يسمح استخدامه لثلاثة أو أربعة من العمال أن يعملوا معاً لمدة أربع إلى خمس ساعات متتالية على عمق ٣٠ أو ٤٠ قدماً تحت سطح الماء.

أهمية تعلق على إنجاز مثل هذا العمل الذى سيوفر لمصر حماية لتجاريتها عن طريق إنشاء بحرية عسكرية، ذلك أن هذا الخليج، على الرغم من الحماية الطبيعية المتوفرة له، يمكن أن ينال حماية أكبر عن طريق أرصفة حاجزة للأمواج، وعن طريق منشآت أخرى على شطآنه، بل وكذلك على نقاط مختلفة على خط الشعب الصخرية التى تحيط بمدخله، وبوسع الطبيعة الجيرية للسلسلة التى تمتد بطول الساحل الجنوبى الشرقى، أن تسهل إنجاز مثل هذه الأعمال الأخيرة.

وتجعل صعوبات ممرات الخليج مما لا مناص منه اللجوء إلى معونة المرشدين الساحليين لكل سفينة تريد الدخول إليه، ومع ذلك فإن الطقس القاتم واضطراب البحر الذى ينتج عنه لا يسمحان فى معظم الأحوال للمرشدين البحريين بالاستجابة لنداء الإشارات، ويمكن علاج هذا العيب بإنشاء منارات على الشاطئ، ويتمثل ذلك فى بناء بعض الأبراج المرتفعة لحد يكفى كى تلمحها السفن على بعد فرسخين وهى فى عرض البحر؛ ويمكن لهذه الأبراج أن تستخدم فى نفس الوقت

كمنارات ونقاط حصينة وفنارات، ذلك أن الحاجة ماسة لمضاعفة الضوء المخصص لتأمين الملاحة أثناء الليل، حيث إن الساحل منخفض وخطير بسبب الترسيبات التي تتم على شاطئه.

٣- أما الميناء القديم، الواقع عند الطرف الشرقى للخليج فيجده الفضاء الدائرى الواقع بين رأس التين والساحل فى الجنوب، وتجعله مرتفعات شبه جزيرة الفنار كلية فى حمى من نواىب رياح الشمال الغربى وكذا رياح الشمال والشمال الشرقى، تلك التى تهب بعنف وانتظام، على نحو ما، على شواطىء مصر. وهذا الميناء فسيح وعميق، والرسو مضمون فيه، وتستطيع أكبر السفن التجارية أن ترسو هناك على مسافة من الأرض تعادل نصف طول قلسها (حبالها أى حوالى ١٠٠ متر فقط)، وفى نفس الوقت، فقد يكون من السهل، عن طريق بعض الأعمال الفنية وبعض المنشآت البحرية الأخرى، جعل هذا الميناء، واحداً من أصلىح الموانىء، مثل ما هو، طبيعياً، واحد من أجمل موانى العالم. وقد عرفنا

عن طريق المجسات أن الفرقاطات والسفن الحربية تستطيع الرسو فيه، وقد كان دخوله فيما مضى محرماً على السفن الأوربية، ونحن نأمل أن يكون الباب العالي الآن أكثر استنارة وإدراكاً لمصالحه، فيأمر بفتح هذا الميناء منذ الآن لتجارتنا، وكذلك لتجارة الدول الأوربية الأخرى^(١).

٤- ويتكون الميناء الجديد، أو الميناء الشرقى، من خليج صغير شبه دائري تبلغ فتحته من جهة الشمال ١٧٨٩ متراً (٩١٧ قامة و ٥ أقدام)، وهو بالمثل محصور بسلسلة من الشعب الصخرية أو الصخور التي لا تبلغ مستوى سطح الماء، ويقلل هذا من اتساع الممر القابل لمرور السفن إلى حوالي ٥٠٠ متر، وحيث هو مفتوح كلية أمام رياح الشمال والشمال الشرقى فليس بإمكانه أن يستقبل إلا بعض الفرقاطات والسفن الحربية الصغيرة.

(١) للتعرف على موانئ الاسكندرية يمكن الرجوع إلى المجلد ١٢ لوجة من أرقام ٨٥ إلى ٩٦ وذلك بخلاف ورقتين للخرائط. انظر الدولة الحديثة، المجلد الثاني.

ويبدأ ممر هذا الميناء على مسافة قلس (القلس هو جبل السفينة ويبلغ طوله ٢٠٠ متر) إلى الشرق من حصن الفنار ومن صخرة المقدمة، التي تسمى الزمردة والتي يمكن الاقتراب منها بشدة (دون خطر). ويبدأ الرسو عند هذه المسافة مع الاتساع إلى جنوب الجنوب الشرقي للفنار، وتضطر السفن التجارية التي لا تستطيع أن تلقى رواسيها إلا عند هذه السلسلة، إلى الحصول على هلبين لكى تقاوم دفع رياح الشمال والشمال الشرقي، وهذه كما سبق القول كثيرة الهبوب، وكثيرا ما يؤدي عنف هذه الرياح إلى تحطيم السفن التي تقاومها لتهوى إلى القاع. وفي حالات الطقس المثلث والقاتم في الشتاء، لا تستطيع السفن أن تحتفظ بتوازنها فتضطر للذهاب إلى الميناء القديم لترسو فيه.

ويبدو الميناء، الذي يسهل الدخول إليه والجرى منه للوهلة الأولى فسيحا، ولكنه على وجه العموم ضحل العمق، تحده شعاب من الصخور فى مستوى سطح الماء توجد حتى منتصفه، وهو فضلا عن ذلك يغص بالرمال والأحجار التي

تلقى بها منذ قرون السفن التى ترسو هناك، كما أن قاع الميناء الصخرى يجعل من الرسو أمراً خطراً بعض الشيء، وتضطر السفن وهى فيه أن تبقى كابلات رسوها عائمة حتى لا تتعرض للقطع بواسطة القاع الصخرى أو الحجرى الذى يسير موازياً لكل خط الرسو. ويعود انسداد هذا الميناء، وهو الذى قد كان فيما مضى عظيم العمق، على نحو كبير إلى الرمال التى تنقلها إليه دون انقطاع تيارات البحر التى تتنوع تبعاً لضعف واتجاه الريح، وكذا إلى تيارات مياه الفرع الغربى للنهر فى أوقات الفيضان، كما تم كذلك بفعل تفتت الصخور الجيرية للساحل الغربى، الأمر الذى يحدث بفعل الحركة المدمرة للبحر.

٥- أما حركة مد البحر وجزره فهى ليست ملموسة، كما أنها ليست دورية على الإطلاق على سواحل الأسكندرية كما هو شأنها فى كل البحر المتوسط، وهى ترتبط بالرياح أكثر من ارتباطها بأى شىء آخر محسوس ودائم، ولا يبلغ أقصى ارتفاع لهذه الحركة التى تتم عند محاور الرياح القادمة من الغرب والشمال الشرقى لأكثر من ١٨ إلى ٢٤ بوصة (٤٩ - ٦٥ سم).

وبعد أن ذكرنا كل ما ينبغي أن نعرفه عن الممرات والرسو في الخلجان وفي ميناء الأسكندرية، سنتناول الأرض، ونجتاز خرائب المدينة التي سقطت من جديد، وربما لعدة قرون، بين تراب مقابرها، حين أفلتت من سيطرة الفرنسيين، تلك السيطرة التي كان يمكن لهذه المدينة في ظلها أن تأمل في بعث جديد.

٦- يحمي مدخل الميناء الجديد، الذي لم يكن مسموحا للسفن الأوربية قبل حملتنا بالرسو إلا فيه وحده، حصنان بنيا فوق الرعوس التي ينتهى بها شكله شبه الدائرى، وهما: حصن الفنار في الغرب، وحصن المنارة Pharillon في الشرق. أما حصن الفنار، فعبرة عن سور محصن تحصيناً حديثاً، ويضم برجاً، مربع الشكل^(١)، بنيت على جوانبه أربعة أبراج صغيرة، تعلو سطحها منارة بها فانوس توقد فيه النار

(١) انظر ارتفاع هذا الحصن باللوحه ٨٥، الدولة الحديثة، المجلد ٢، ويقدم هذا المنظر الذي ندين به للمسيو سيسيل Cécile دقة كبيرة في التفاصيل.

ليلاً^(١)، وقد شاهدت فى حجرات هذا الحصن الشديدة الارتفاع أكواماً من السيوف والأسلحة الأخرى التى بليت تماماً بفعل الصدا، والتى جعلتنا أشكالها والعلامات التى تحملها ندرك بأنها تعود إلى الصليبيين، وبلا جدال، فإنها تعود إلى صليبيى حملة لويس التاسع البائسة.

(١) حدد علماء الفلك التابعون للجيش الفرنسى من فوق حصن الفنار موقع مدينة الأسكندرية. ويعود إلى هؤلاء الفلكيين أنفسهم نتائج الحسابات التى قامت على أسس حساب المثلثات والتى استخدمت فى تشكيل خرائط الأسكندرية، وإليك هذه النتائج:

..... إلى الشيخ (العجمى) ١١,٧٢٨ م
المسافة من الفنار
..... إلى العمود ١٠,٩٣٦ م

..... إلى خط الزوال ٩,٢٢٨ إلى الغرب
المسافة من الشيخ (العجمى)
..... إلى الرأس ٧,٢٤٠ إلى الجنوب.

أما ملاحظاتهم على البوصلة فقد أدت إلى النتائج التالية:

درجة الميل إلى الغرب ٩ ١٣
زاوية الميل ٣٠ ٤٧

ملحوظة: عبرنا عن مجسات الموانىء، التى يعود الفضل فى الحصول عليها إلى عناية السادة ضباط البحرية، ومهندسى الطرق والكبارى، بحسب مقياس القدم الفرنسى.

ويتم الاتصال بالفنار عن طريق جسر ضيق يحميه طريق مغطى ومسنن، طوله ٥٥٠ متراً. ويكاد هذا الجسر الذى بنى فوق سلاسل صخرية يستوى فوق سطح الماء وعلى صخور ضخمة وقطع مفتتة من الأعمدة الجرانيتية، رميت وتكدست بشكل أفقى، وتخرقها بعض القناطر الصغيرة التى نفذت بعرض الطريق، والتى تؤدى إلى تحطيم وإضعاف قوة الأمواج التى تندفع لتصطدم بها فى عنف، بواسطة رياح الغرب والشمال الغربى، لكن هذه الفتحات الصناعية يعيها أنها، عندما تترك مياه العرض تتدفق إلى الميناء الجديد، تسمح بمرور كمية كبيرة من الرمال إلى الميناء، مما يساهم فى الإسراع بإغلاقه (نتيجة تكدس الرمال فيه).

٧- أما الزمردة، أو الماسة، فهى صخرة بمستوى سطح الماء، تقع بالقرب من حصن الفنار وإلى الشمال منه، وتكون مكشوفة فى الأوقات الهادئة، ويلاحظ أن على سطحها آثار مبان قديمة، وتحيط بها قطع من الحجارة شذبتها يد الإنسان، وقد فسر ذلك بعض الرحالة بأن هذه الصخرة كانت

تستخدم فى الأصل كقاعدة للفنار القديم، وإن كان سطحها لا يبدو مطلقاً أنه كان ممتداً لهذا الحد، وقد عرفنا مما أوضحت المجسات أن مياه البحر فى كل مكان من حول هذه المنطقة، شديدة العمق لحد كبير.

٨- أما شبه جزيرة الفنار، والتي تسمى بالعربية روضة التين - إذ كانت تزرع هناك بنجاح كبير أشجار التين التي تنتج أفخر الثمار - فتغطى الميناء القديم بطول يبلغ ٢٦٥٠ متراً بالاتجاه نحو الجنوب الغربى، وترتبطها الملحية الفاصلة ليست سوى صخرة جيرية يبهز ويؤذى العين لونها الأبيض الذى تجعله الشمس باهراً على الدوام، وكل شبه الجزيرة هذا محاط بشعب صخرية فى مستوى سطح الماء، وبخاصة إلى الغرب من جسر حصن الفنار. وترى هناك كذلك بقايا مصانع قديمة ومبان أخرى من الطوب والأسمنت أمكنها أن تقاوم تكسر أمواج البحر، فى الوقت الذى أمكن لهذه الأمواج أن تحدث دماراً فى صخور هذه الشعب.

ويدافع عن الرأس الواقع إلى جنوب غرب شبه الجزيرة

هذه، والذي لا يمكن الاقتراب منه، بطارية قريبة تتسمى باسم رأس التين. وهناك حصنان آخران لهما طابع عربى يحميان الميناعين من الداخل. ويوجد بالقرب من الميناء القديم وإلى الشمال الغربى منه لسان من المياه المالحة، ينتج بشكل طبيعى ملحاً شديداً البياض، وإن كان له مذاق أكثر لذوعة من مذاق الملح البحرى العادى.

وهذا الجزء من شبه الجزيرة الذى يتوازى مع أرض المدينة الحديثة مخصص فقط لمقابر المسلمين. وقد حددنا على الخريطة، بواسطة خطوط صغيرة سوداء وممتلئة، المدافن الخاصة بالعائلات، وهذه تشكل أضرحة من الرخام الأبيض أو من الحجر الجيرى، بنيت فى بساطة تتفاوت درجتها، وتتفاوت كذلك درجة تزيينها بالرسوم والكتابات.

٩- وبعد أن يجتاز المرء حى المقابر هذا، ينفذ إلى خل المدينة الحديثة التى تفصل بين الميناعين. وقد بنيت هذه المدينة فوق كتلة من الرمال تكونت حديثاً ونتجت عن تراكم الرمال الذى سبق أن تحدثنا عنه. يقول المسيو

دى ماييه M. de Maillet، الذى أقام بمصر أربعين عاماً بوصفه قنصلاً لفرنسا: "هكذا كانت تتم هذه الترسيبات، بحيث إنه فى ظرف مدة ٢٦ عاماً، أى من ١٦٩٢ إلى ١٧١٨، أصبح ارتفاع هذه الترسيبات يبلغ أربعين قدماً أمام منزل القنصلية الذى كنت أقيم فيه حتى أن الناس قد ابتنوا لأنفسهم بيوتاً فوق تربة هذا الشاطئ الجديد". وقد امتدت حركة الترسيب هذه لأبعد من ذلك بكثير داخل الميناء، حتى أصبحت الرمال تهدد بغزوه كلية فى مدى أقل من قرن واحد.

ولا تضم هذه المدينة أى مبنى له أهمية، وتمتلىء مساجدها الرئيسية التى يبلغ عددها من ٢٥ إلى ٣٠ مسجداً، وكذلك الوكالات والمتاجر العامة والبيوت الخاصة، والأرصفة هناك، بأبدان من أعمدة من الحجر الجيرى أو الرخام أو الجرانيت أو الألبستر. وتوجد عليها نقوش قديمة، وهى مأخوذة من قصور قديمة خربة. وقد اكتفينا بالإشارة بالحروف فقط كى نبين على الخريطة مكان المنشآت المتصلة بخدمة البحرية والإدارات العامة، وليس هناك من بين كل هذه

المنشآت، منشأة واحدة تستحق وصفا خاصاً. وإذا ما استثنينا تصميم الوكالات، فإن البناء والتوزيع الداخلى للبيوت بالغ السوء ويستعصى على الفهم. ولا تشكل واجهات البيوت إلا واجهات ملساء تميل للبياض وتخرقها نوافذ صغيرة تغطيها تقفيصات من الخشب ذات مصلبات ضيقة، أما شوارعها الضيقة، غير المرصوفة، والتي ليس بها أى مجرى لتصريف مياه المطر فتظل متربة أو موحلة حسب الطقس. ولا نشاهد هناك حركة إلا باتجاه الأسوار أو الأحياء التجارية، وباختصار، فكل شىء يساهم فى إعطاء المدينة مظهراً حزيناً وطابعاً رتيباً فى نظر كل أوروبى، تجذبه إلى هذه المنطقة من العالم، التجارة أو حب السياحة.

وهذه المدينة محرومة بشكل طبيعى من المياه الطوة كما سنوضح ذلك فيما بعد. وتستطيع آبار المدينة، التى تمدها بالمياه والتى ترتبط بمساجدها العشرين أن تحتوى على ١٥٤٠٠ حمولة جمل، وتقدر حمولة الجمل الواحد بـ ٢٠٠ بنتة (البنتة = ٦٨ ر. من اللتر) تزن ٤٠٠ لبرة أو ١٩٥ ك ج

٨٠ ديكاً جرام (ديكا جرام = ١٠ ج)، ويمكن لهذه الكمية أن تكفى الاستهلاك لمدة ١٢٨ يوماً أو أربعة أشهر لثمانية آلاف نفس يشكلون تعداد سكانها عادة، وتمتلىء هذه الآبار سنوياً حتى نصفها عن طريق مياه الأمطار التى يعتمد عليها، أما النصف الآخر فيجىء عن طريق نقل المياه.

وفضلاً عن هذه الخزانات العامة، فإن لكل منزل خزانه الصغير، يعمل المالك على ملئه بواسطة القرب المحمولة على ظهور الجمال أو البغال أو الحمير، كما توجد هناك أيضاً آبار قليلة العمق، تستخدم مياهها التى تتفاوت درجات ملوحتها فى الأعمال المعتادة، وتقدم بعض هذه الآبار مياهاً صالحة للشرب. ويضطر أكثر الأهالى فقراً، وهم أولئك الذين لا يمتلكون فى منازلهم آباراً أو خزانات للمياه، للذهاب للحصول على المياه اللازمة لاستهلاكهم اليومي من الخزانات الكبرى فى المدينة القديمة.

ولا توجد فى هذه المدينة أية طاحونة تدار بالمياه، وثمة طاحونة هواء تقع على شط الخليج إلى الشمال من شبه جزيرة الفنار، بنيت منذ حوالى ٢٠ إلى ٣٠ عاماً على يد واحد من أبناء رودس، وهى الطاحونة الوحيدة من نوعها فى كل

مصر. وقد أنشأنا نحن طاحونتين من هذا النوع فى ضواحي القاهرة. ولتفادى سوءات هذه الماكينات يمتلك كل فرد غنى فى بيته طاحونة تدور بواسطة الخيول أو الحمير، وتخصص بعض هذه الطواحين للخدمة العامة، ويمتلك أكثر الأهالى فقراً لاستعمالهم الخاص طواحين ذات ذراع (رحاة) تديرها عادة نسوة لا يقمن عادة بأى عمل آخر، وهن يقمن بعملهن هذا حتى وقت متأخر من الليل.

١٠- لا يمكن تحديد فترة بعينها أنشئت فيها هذه المدينة الحديثة، فقد بنيت وسكنت من جهة بمجرد أن شكلت أكوام الرمال ما يبلغ مرحلة الردم، ومن جهة أخرى، عندما كانت الحروب المدنية والدينية، أو تلك التى تشنها الدول الأجنبية، تنشب مسببة فى المدينة القديمة دماراً يدعو إلى هجرها بشكل جزئى، ولا يعود أكبر اتساع حدث بالنسبة لهذه المدينة إلا إلى منتصف القرن السادس عشر، بعد بضع سنوات من هزيمة مصر على يد سليم الأول.

وينبغى أن نختم ذلك بمقتطف من عند جان ليون

الأفريقي Jean Léon d'Afrique^(١)

١١- ويوجد على شاطئ الميناءين بعض الجدران وبعض الأرصفة البحرية لتسهيل عمليات الإبحار، وقد بنيت هذه المنشآت فى الجزء الأكبر منها من أجزاء من أعمدة مكسدة، أما المحال والمباني الأخرى المرتبطة بخدمة ورش إصلاح السفن، فإن حالة الإهمال والخراب التى توجد عليها هذه المنشآت، لتجعل المرء يتعرف على روح اللامبالاة من جانب الحكومة التركية، التى تركت كل شىء يتآكل وينهار دون ترميم أو صيانة.

(١) يقول جان ليون الأفريقى الذى كان فى جولة فى مصر عام ١٥١٧ وهى نفس السنة التى هزمت فيها على يد سليم الأول: إن المدينة العربية، وهى التى تشغل جزءاً من موقع المدينة القديمة، كانت فى هذه الفترة لا تزال مزدحمة بالسكان. ويضيف هذا الرحالة: إن كل بيوتها كانت تنهض فوق خزانات. وكان يطلق على الميناء الجديد اسم مرسى السلسلة.

ويوجد بالمدينة جبل مرتفع شكله غير طبيعى، وهو مغطى ببقايا فخارية، ويوجد على قمته برج أو مرصد.

Collection de Ramusis en 3 vol t. 1er.

١٢- وقد بنيت فى الأسكندرية بعض السفن التجارية الكبرى، وسفن الكرافيل (مركب سريع بثلاثة صوار أو أربعة) وهى نوع من الفرقاطات التركية المزودة بـ ٤٠ إلى ٥٠ مدفعاً، والمراكب التجارية التى تقوم بتجارة الشط (أى نقل البضائع بين المدن الواقعة على الشط) بين رشيد ودمياط عن طريق مصبى النهر^(١).

أما طبقة السكان التى تعمل فى خدمة البحرية فتسكن شواطئ المينامين وبالذات الشواطئ الواقعة إلى الجنوب من شبه جزيرة الفنار والمخصصة للإنشاءات البحرية. أما أهل الأسكندرية الذين يعملون بالصيد أو بتجارة الشط فهم بحارة شديدي المراس، وهناك من بينهم سباحون مهرة، وكذلك بصفة خاصة - غطاسون ذوو مهارة كبيرة، وتروى عنهم حكايات تثير الدهشة.

(١) نستطيع أن نرى فى دراسة عن القناة التى تربط بين البحرين مقالاً عن الملاحة فى النيل (جـ ٢ فصل ٦، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٢٣)، ونجد فيه وصفاً لمختلف أنواع السفن التى تبنى فى مصر.

١٣- كان تعداد شعب الأسكندرية أثناء فترة سيطرتنا على مصر، يبلغ حوالى ثمانية آلاف نفس، وقد تناقص إلى سبعة آلاف نفس فقط عند جلائنا. ويتكون هذا الشعب من مصريين خلص، ومن أتراك وعرب ومغاربة وأروام وسوريين ويهود، ومن بعض المسيحيين من الأوربيين. وإنه لأمر مثير للفضول حقاً، أن تنتظر فى ظل الأسواق أو فى الأحياء التجارية، إلى تجمع حشد كبير من الناس، ينتمون إلى جنسيات مختلفة، تجمعهم فى سلام مصالح العلاقات التجارية، لتفرقهم - هى نفسها - فى ضجة عشر مرات وربما عشرين مرة فى اليوم الواحد. إن المرء لا يمكنه إلا فى لوحة حية أن يقدم العناصر التى لا نهاية لها، والتى هى بصمات الطبيعة على المكان بمثل مالها من بصمات كذلك على حركة جسم الانسان، وفى هذه اللوحة الحية فقط يمكن أن نتبين كذلك الاختلافات الخلقية والخلقية، التى يضيفها الطقس والتعليم والدين، إلى طابع الإنسان وإلى آرائه ووجوده.

إننى لن أحاول هنا أن أقدم هذه اللوحة؛ وذلك لأن مثل هذه اللوحة ستكون ناقصة. طالما ظلت محرومة من الألوان التى يتطلبها مثل هذا النوع من اللوحات، إذ إن أقوى الخطوط لن يكون بمقدوره أن يعوض غياب الريشة، ولو أننى حاولت مجرد المحاولة لخرجت عن الإطار الذى ينبغى أن أحصر نفسى بداخله.

١٤- وسأمسك كذلك عن الحديث عن الإدارة المدنية وعن القوة العسكرية للحكومة التى تسهر على حماية أمن ووجود سكان هذه المدينة، وسأكتفى بالقول بأن المؤسسات التى كانت تنشغل على وجه الخصوص بالإدارة المدنية لمصر، كانت ترتبط بالدين فيما مضى، وأن الأمور بهذا الخصوص قد ظلت على حالها، فلا يزال القرآن حتى اليوم بالنسبة للمفتين (مفتى) والقضاة ورجال الدين هو الكتاب المقدس، الذى يشكل مجموعة القوانين ويضع قاعدة التقاليد والعادات. أما عن القوة العسكرية، فهذه لم تكن فى معظم الأحيان سوى سند للمساوىء الظالمة السائدة، إذ لم يكن يسودها اعتدال عاقل،

كما كانت تفتقد - على وجه الخصوص - إلى النظام الصارم.

١٥- ويمكن القول بأن تجارة الأسكندرية اليوم لا تشتمل إلا على تصدير الحبوب والأرز والنطرون من مصر، فى مقابل بن الجزيرة العربية وبعض بضائع من الهند تصل إليها عن طريق البحر الأحمر. وعن طريق موانى هذه المدينة تتبادل مصر وأثيوبيا الأصواف والحراير والآنية الزجاجية وأشياء أخرى، من مارسيليا وليفورنيو والبندقية والقسطنطينية وموانى الشرق الأخرى.

وقبل مجيئنا، كانت الأسكندرية، التى ينبغى ألا ننظر إليها اليوم إلا كمستودع للبضائع، تضم حسبما يذكر المسيو أوليفيه Olivier :

٨٨ مسجدا من بينها ٤٦ مسجداً من الدرجة الأولى و٤٢ من الدرجة الثانية.

٢٠٠ نول لصنع المنسوجات الحريرية الخفيفة والخاصة بملابس الطبقة الميسورة من كلا الجنسين.

٤٠٠ نول لنسج قماش التيل المسمى مغربين لصنع القمصان التى يرتديها أبناء الطبقة الشعبية.

٥٠ نولا لصنع منسوجات صوفية خشنة للملابس العربان.

٣٠ مصنع صابون تستورد الزيوت اللازمة لها من المورة وكريت وسوريا. ويصنع هناك أيضا الجلد المراكشي الأحمر، وهذه جلود ثمينة بالغة الجودة وتحظى بإقبال كبير في القاهرة ومدن مصر الأخرى وفي داخل أفريقيا.

١٦- وطقس الاسكندرية صحى إلى حد كبير؛ وعلى الرغم من شدة حرارته صيفاً فإنه يكون معتدلاً عن طريق نسيم الليل؛ أما ندى المساء، وعلى وجه الخصوص في فصل الرياح الشديدة فيحدث في هذه المدينة، وذلك شأنه في كل مناطق مصر الساحلية، رطوبة ملحية تخترق مسام الأجسام. وشتاء الاسكندرية غزير المطر؛ وفي هذا الفصل الرطب تظهر الأمراض الموسمية بدرجات متفاوتة^(١) ، ويقول سترابون

(١) كان على الجيش أن يلاحظ بمزيج من الدهشة والقلق تلك الخسارة التي لحقت بنا والتي كلفتنا ١٦٥٠ رجلاً من حامية الاسكندرية في أثناء الشهور الثلاثة لأول شتاء قضيناه في هذه المدينة أى في ديسمبر ١٧٩٨ ويناير وفبراير ١٧٩٩ في حين لم يصب الطاعون إلا عدداً ضئيلاً من السكان. ويرى بعض الرحالة وهم يتحدثون عن أسباب تأصل الطاعون في مصر، أن هذا المرض ليس متوطناً على الإطلاق في مصر، وأنه لا يأتى إليها إلا عن طريق سفن قادمة من =

وهو يتحدث عن طقس هذه المدينة: "يلاحظ بوضوح أن هواء

= القسطنطينية أو أنه يأتي من داخل أفريقيا، وأعتقد أن كبار الأطباء الضباط في الجيش وهم السادة ديجينيت des genettes ، كبير الأطباء، ولارى Larry ، كبير الجراحين، وسافارسي Savaresy ، وفرانك Frank ، وبالم Balme وهم ضباط أطباء عاديون.. وكذلك آخرين من الذين عالجوا هذا المرض في مصر، والذين نشروا عنه دراسات هامة لا يشاطرون هؤلاء الرحالة هذا الرأي، لماذا لا نعتقد رأى سترابون Strabon الذي نجد فيه الأسباب معروضة بطريقة واضحة، وبسيطة، وطبيعية للغاية. فهل العقل الانساني لا يسير في نسق منتظم فيكون عليه أن يقبل على الاطلاق آراء في قرن ما ليهدمها وينقضها بآراء جديدة في القرن الذي يليه؟ ومع ذلك فيمكننا أن نتفق، بعد أن نكف عن تعميم الأمور، على أن ركود المياه والرطوبة التي تنتج عنها، هي هنا، كما هي في كل البلدان الحارة، بذرة كل الأمراض المتوطنة والوبائية التي تسيطر هناك باستمرار. فلنتذكر مثلاً تلك البلاد التي تمارس فيها هذه الأمراض دمارها: غيانا، سان دومنجو، مصر، هولندا،.. إلخ، وفرنسا في الأجزاء الرطبة منها مثل: جرافلين Gravelines وروشفور Rochefort ، وسوف نكون على يقين تام بأن هذه الأوبئة قد انتشرت في كل هذه البلاد عن طريق أبخرة الطاعون، التي تحدثها الشمس في المياه الراكدة فتترك بعد تبخرها أراضى موحلة، من يستطيع إذن أن يشك في أن الأوبئة التي تجتاح الحيوانات ليست سوى أنواع من الطاعون تنتج من المياه الراكدة التي تشربها ماشيتنا في أوقات الجفاف؟ وقد يعترض البعض بأن الطاعون يظهر أيضاً في صعيد مصر حيث لا تكاد الأمطار تسقط على الإطلاق

المدينة صحي، ويعود ذلك إلى موقعها حيث تلامسها المياه من

= وحيث لا توجد مستنقعات، هذا صحيح، ومع ذلك فقد لوحظ أن الطاعون لا يحدث هناك إلا بعد فيضان غير عادي للنهر، ويكون ذلك بلا جدال بفعل رطوبة الأرض الشديدة، الناتجة عن بقاء المياه فترة طويلة، وعندئذ يكون الطاعون ذا قوة وكثافة مرعبتين، إذ يدمر قرى بأكملها كما حدث في نفس العام الذي جلونا فيه عن مصر، أى فى عام ١٨٠١، ويلاحظ أن الطاعون فى هذه الحالة يهبط مع النهر إلى مصر السفلى، بينما يحدث فى نوبات الوباء الاعتيادية أن يتخذ الوباء مساراً مناقضاً أى أنه يتجه من البحر إلى الداخل، نحو الجنوب.

وينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أيضاً أن هذا التتابع الدائم بين الحرارة الشديدة أثناء النهار، والرطوبة الشديدة أثناء الليل، وبخاصة فى فصل الأمطار وفصل الفيضان، يحدث ارتباكاً فى توازن الأمزجة، وأن آثار هذه التغييرات الفجائية والمتكررة تؤدى إلى تحلل الدم، وهو الذى قد أضعفه إلى حد كبير العرق الغزير والمتكرر، وفى مثل هذه الحالة، فإن الجسم - وهو مستعد والأمر كذلك لاستقبال أشد المؤثرات ضالة بسبب الطقس الثقيل فى المساء والملىء بالأبخرة الأسنة فى النهار - يسريه عن طريق كل المسام، ذلك أن الدم مثله مثل الهواء والماء، إنما هو سائل ذائب يفسد ويتحلل بسبب الركود، وفى نفس الوقت فأننى أبعد ما أكون عن أن أنكر أن الطاعون يمكنه فى بعض الأحيان أن يأتى إلى مصر من الخارج، وبخاصة من داخل أفريقيا، ذلك أنه، إذا كان هذا الوباء يحدث فى كثير من الحالات نتيجة للاحتكاك، فلا بد إذن أن نوقن أن الرياح، وهى المركبات التى تركبها الأبخرة الضارة والمهلكة التى يغص بها الجو، تنقله سريعاً من منطقة لأخرى؛ وينبغى ألا تدع سرعة =

جهتين، كما يعود كذلك إلى الفوائد التي تجنيها من فيضان النيل، ذلك أنه في كل المدن الواقعة على شواطئ البحيرات، لا يستنشق الإنسان أثناء حرارة الجو الشديدة إلا هواء ثقيلًا وخانقًا، ينتج عن الأبخرة التي تحدثها الشمس، كما أن الأحوال تظل لمدة طويلة على حواف البحيرات، مما يؤدي إلى انبعاث روائح مستنقعية تنتشر في الطقس بذور الأمراض ويتولد عنها الطاعون، أما في الإسكندرية فإن النيل الذي

=انتشار هذا الوباء، التي حصدت في فترات عديدة سنوات ١٧٦، ٢١١، ٢٥٢، ٥٣٩، ٥٤٢، ٥٥٨، ٧٤٧، ١٠٠٦، ١٣٤٨ من العصر الحديث ما يقرب من ثلث السكان في أوروبا، وهددت بقية الكرة الأرضية، ينبغي ألا تدع مجالاً للشك حول هذا الموضوع، فمن الممكن أن ينتقل واحد من هذه الطواعين، وبخاصة إذا كان قادماً من داخل أفريقيا مع سرعة الرياح إلى مصر وسوريا، ومن ثم ينتشر في أوروبا. إذن فإني أوافق على أن الطاعون متوطن ووبائي في وقت معاً، أو يأتي من تلقاء نفسه حسب حالة الطقس، في مصر بالذات. إن مارآه سترابون هو الذي قادني إلى الوصول لهذه الاعتبارات الفيزيائية عن الطاعون، كما أنه يتطابق مع الرأي الذي سقته هنا تبعاً للملاحظات التي قمت بها والتي كنت في وضع يسمح لي بالقيام بها، في المرتين اللتين أصبت فيهما بهذا المرض في مصر، واللتي لم أفلت منهما إلا بفضل الطاقة والحيوية اللتين يهيئهما صغر السن، وكذلك بفضل طبعي المتفائل وكذلك بفضل نوبات العرق الغزير التي كانت تأتيني في الوقت المناسب.

يفيض فى كل عام فى بداية الصيف يقوم برفع مياه البحيرة، وبذلك لا يدع الأجزاء الموحلة مكشوفة فلا تصعد منها أبخرة ضارة، وعندئذ تجلب الرياح العنيفة التى تهب من الجزء الشمالى، من أعالى البحار، النسيم المنعش إلى سكان الأسكندرية فيمضوا الصيف على نحو طيب".

وبالنسبة لى، فليس بالإمكان أن نقول شيئاً أكثر من هذا تحديداً ودقة، وعلينا أن نضيف قبل أن نختم هذه الفقرة للجغرافى الإغريقى أن امتلاء بحيرة ماريوتيس (مربوط) يظل داخل حدود صحيحة، طالما هو يغطى الأجزاء الموحلة من حوضها الجاف؛ وكما سبق أن قلنا فى دراستنا عن البحيرات المصرية، الجزء الخاص ببخيرة مربوط، فإن هذا الامتلاء هو صاحب الفضل فى المباهج الصحية التى كانت تنعم بها هذه المدينة قديماً. لقد قلنا قديماً إنه يبدو أن الأوبئة التى تخرب فى معظم الأحيان هذه المدينة، كما تدمر مصر بشكل عام، كانت فى ذلك الوقت أقل تردداً أو أنها كانت أقل انتشاراً عنها الآن، ومنذ أن سقطت المنطقة تحت سيطرة شعب تجعل

منه معتقداته الدينية يتدنى عن القدر الذى لا فكاك منه
بخصوص مصير الإنسان، ولا يتخذ أدنى حيلة أو وقاية.

وبعد أن عالجنا كل ما يهم أن نعرفه عن المدينة الحديثة،
نواصل الآن مسيرتنا ودراستنا ونحن نطالع بعيوننا خريطة
موقعها القديم.

١٧- عندما نترك أرض الروم فى المدينة الجديدة لكى
نصل إلى القارة القديمة، فإننا ندخل عن طريق أبواب عالية
إلى سور واسع حصين لم يعد يضم سوى بقايا الأسكندرية
القديمة. وهذه الأطلال الأثرية تجذب عموماً فضول الناس؛
ويبدو أن النفس تجد فى ظل الآثار القديمة للأجيال الماضية
بعضاً من جمال الذكريات المليئة بالشجن تذكر بها هذه
المباني، فمظهرها الصامت يثبت فى الروح انفعالا خفياً يهزها
ويتسامى بها، كما أن الإنسان عندما يتأملها فإنه يفارقها
بصعوبة ويعود إليها بشوق، لكن آثار الأسكندرية على العكس
من ذلك لا توحى إلا بحزن مرير وعميق، إذ هى لا تقدم إلا

صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذى يصيب الإنسان ومنجزاته. وفى الواقع، ففى فراغ فسيح، يحيط به سور مزدوج، تعلوه أبراج عالية، فإن الأرض لا تغطيها إلا أطلال المباني القديمة المدفونة تحت تلال من الأنقاض، والأعمدة وتيجان الأعمدة المهشمة أو المقلوبة، وقطع متماسكة من جدران منهاره، وقباب مدفونة، وتكسيات الجدران التى تاكلت أحجارها الشوهاء بفعل رطوبة وملح وأحماض البحر. فى كل مكان يجد المرء أباراً وخزانات نصف مطموسة، أو حفراً عميقة يستخرج منها السكان أحجاراً جيرية لا تزال تحمل آثار عمل الإنسان، والتى حولها الإنسان بدوره إلى مجرد جير؛ فى كل مكان لا يسير المرء إلا على بقايا فخار، وزجاج، ومخلفات معدنية، وإلا على فتات من كافة أنواع الرخام، ووسط أتربة تميل للبياض ترفعها الرياح وأقدام المارة لتدور بها فى شكل دوامات. وسط هذا الفوضى يبدو هذا البعض من المساكن المنعزلة، والتى بها المقابر، وكأنها لم تنهض وسط هذه الخرائب إلا لتغطى بظلالها مأوى الموت، وهذه المقابر

التي تتكون من كهوف صغيرة، تضم جثثاً ترقد فوق أرض
ترايبية، ترابها هو آخر بقايا الإنسان الهش.. فى داخل هذا
الفناء تتناثر أتربة وأنقاض مدينة واسعة، نبحت عنها دون
جدوى، ونتخبط نحن وسط أسوارها.

١٨- وأول ما يظهر لعيون المسافرين، فى حقل الخرائب
هذا، مرتفعان يسمح علوهما، الذى يبلغ من ٥٠ إلى ٦٠ متراً،
بأن يستخدمهما هؤلاء المسافرون نقطتى استرشاد عند
الاقتراب من ميناء مصر الوحيد، ويحمل أول هذين المرتفعين،
وهو الذى يقع إلى أقصى الشرق، اسم هضبة سانت كاترين،
وهو الاسم الذى خلعه عليها الفرنجة أو مسيحيو هذه البلاد،
أما الآخر فيقع إلى الغرب، وتنتهى قمته ببرج صغير يستخدم
مرصداً. ولا يتكون هذان المرتفعان إلا من أنقاض أنية
فخارية وأنقاض أخرى يحملها إلى هناك كل يوم سكان
المدينة، وتتزوج قمتا هذين المرتفعين، حيث يستطيع البصر أن
يمتد إلى بعيد فوق الأرض وفوق الماء، بحصن صغير من

سلسلة الحصون التى تلتف حولهما وتحمى أطراف المدينة^(١)
ومن الضرورى ألا يكون هذان المرتفعان قد تكونا إلا منذ

(١) كرم القائد العام الجنرال بونابرت ذكرى اثنين من كبار ضباط الجيش المهندسين، ماتا فى ساحة الشرف، وذلك بأن أطلق اسميهما على هذين الحصنين، فأطلق على الحصن الشرقى اسم حصن كريتان Fort Crétin ، وهو اسم كولونيل مهندس قتل فى موقعة أبى قير فى يولية ١٧٩٩. أما الثانى فقد سعى حصن كافاريللى Fort Cafarelli ، وهو قائد فى نفس الجيش مات متأثراً بجروحه فى واحدة من عمليات حصار حصن عكا فى سوريا فى ٢٧ أبريل ١٧٩٩، وقد كان كافاريللى، وهو ضابط شجاع بقدر ما هو مهندس بارع، يحتفظ على الرغم من الخسارة التى كلفتة إحدى ساقيه فى بداية حصار مدينة ماينس Mayence فى أكتوبر ١٧٩٥، بنشاط يدعو إلى الدهشة وفى نفس الوقت فقد كان مشهوداً له بأعلى الصفات الروحية وبمعارفه المتنوعة والواسعة فى العلوم الفيزيائية، وفى الأخلاق والسياسة، لذلك فقد سبب موته أعظم الأسى للجيش، كما بكاه القائد العام، وكذا الجنرالات والجنود وأعضاء مجمع العلوم والفنون الذى كان كافاريللى بمثابة أب وصديق له فى نفس الوقت فى مصر.

وليس ما أقول هنا هو مجرد عاطفة تذكر فى ذكراه كنوع من الوفاء والعرفان، لكنه شهادة عدل شاء رئيس أركان حرب الجيش، عن طيب خاطر، أن يقدمها لتلك المميزات العظيمة لهذا الجنرال الذى كان أفضل ضباط جيش حملة مصر.

بضع قرون، ويبدو أن المرتفع الغربى، حسبما يذكر ليون الأفريقى الذى سبق أن أوردنا ما قاله قبل ذلك، كان موجوداً أيام سليم (الأول) فى عام ١٥١٧، إذ من المعروف أن هذا السلطان، لكى يعالج الآثار الضارة لجبال الأنقاض التى يبدو أن القاهرة وبقية مدن مصر كانت توشك أن تدفن تحتها ذات يوم، قد أصدر أمراً بنقل كل مخلفات المدن براً أو نهراً إلى مصبات النيل، وسوف نتحدث عن الجانب المفيد الذى قد يكون لهذه التلال (من الأنقاض) والتى تحمل الرياح منها على الدوام أجزاء تسقط فى معظم الأحيان كأطمار من تراب فوق المدن التى تشرف هذه التلال عليها وتغضى جزءاً كبيراً منها.

١٩- هناك شىء ينجذب إليه المرء بأكبر قدر من الاهتمام، ذلك هو تلك المسلة التى يلمحها المرء عند شواطئ الميناء القديم، وقد دفعتنى قممتها المرتفعة فى شكل سهم والتى تجذب انتباه المسافرين لأبدأ وصفى لهذا الأثر، وهو الأثر الأوحده، أو الأكثر كمالاً وسلامة من بقايا المدينة القديمة.

إلى الجنوب، وقريبا من أحد أبراج السور، الذي يسمى
برج الرومان، وهو يطل على الشاطئ الشرقى للميناء الجديد،
توجد مسلتان من الجرانيت، جرى العرف على تسميتهما
مسلتى كليوباترا، باسم تلك الملكة الرائعة، آخر سلالة البطالمة
التي اضطرت بعد أن اعتلت وحدها عرش خلفاء الإسكندر،
أن تهجر مقاليد الحكم، وأن تتخلى عن مباحج حياة وهبتها
لغريم أغسطس (أكتافىوس)، وأن تقتل نفسها، بعد معركة
أكتيوم.

ومسلتا كليوباترا، هما مسلتان من الجرانيت الشرقى،
إحدهما مقلوبة، أما الأخرى فلا تزال تنهض على قاعدتها،
وحجمها تين المسلتين يتماثلان على وجه التقريب، ولكل منهما
وجوه أربعة مليئة بالنقوش الهيروغليفية. وقد رسمت نقوش
واحد من الوجوه الأربعة للمسلة التي كانت مقلوبة.

ويلاحظ المرء من بين علامات هذه الكتابة الرمزية رسوما
مقلدة بشكل بالغ الدقة، ومنقوشة بحروف غائرة لوجوه بعض
الحيوانات، منها: الثور، الثعبان، الجعران، البومة، البومة

الصلعاء، السحالي، طائر أبى منجل، طائر اللقلق، الببط،
وطيور أخرى وحشرات ذات أجنحة لا نعرف عنها الكثير، وبين
هذه النقوش الموضوعه داخل إطارات تمثل لوحات سيمتريه
لا يمكن للمرء أن يخطئ الأعضاء الجنسية للإنسان. ويقول
هيرودت حول هذا الموضوع؛ إن سيزوستريس قد أمر بحفر
هذه النقوش تحقيرا للشعوب التي كان قد هزمها وجللها
بالعار، وذلك عندما أخضعها بدون قتال.

أما مقاييس المسلة المقلوبة التي قمت بقياسها فهي :

الارتفاع حتى القمة الهرمية = ٥٧ قدما (١٨, ٥١٦ م).

عرض الضلع = $\frac{٣}{٧} \text{ ق}$ (٢, ٣٨٢ م).

وعلى الرغم من أن زوايا قاعدة هذه المسلة قد تهشمت بل
وتشوهت فقد حسبت عرض الضلع الأدنى لهذا الوجه الذى

رسمته $\frac{١٠}{٩} \text{ ق}$ (٢, ٢٢٠ م) بينما بلغ عرض الضلع للوجه

الملاصق، والذى قام بقياسه المسيو بلزك $\frac{١}{٧} \text{ ق}$

(٤٢٠، ٢م)، وهذه الاختلافات فى عرضى الوجهين المتلاصقين لوجوه المسلات الرباعية تبدو موجودة بشكل عام فى هذه المسلات كما تبدو فى جوانب الأهرام، ويلاحظ فى الزوايا الأربع لتصميم قاعدة هذه المسلة أربع فتحات للتعشيق عرضها من ٢٠ إلى ٢٥ سم وهو نفس طول عمقها، وكانت هذه مخصصة بلاشك، كما هو الحال فى المسلات الأخرى، لكى توضع بها أسنة التعشيق التى ينبغى أن تدعمها عند قاعدتها.

ومن المعروف أن أباطرة من الشرق ومن الغرب قد نقلوا فى عصور مختلفة مسلات مختلفة إلى روما وإلى القسطنطينية^(١). وقد حصرت فى الرحلة التى قمت بها إلى

(١) انظر A ، المجلد الخامس، اللوحين ٣٢، ٣٣. وقد ذكر فى مؤلف ولسون أن لورد كافان Cavan عندما كان يتولى القيادة فى الأسكندرية، قد أمر بعمل اللازم لنقل المسلة المقلوبة فى هذه المدينة إلى لندن. ثم اعترضت تنفيذ هذا المشروع عقبات مختلفة، ويذكر مستر ولسون أن مصاريف النقل قد قدرت بـ ١٥ ألف جنيه استرلينى (تاريخ حملة الجيش الإنجليزى على مصر فى عامى ١٨٠١، ١٨٠٢ تأليف =

روما عام ١٨١٠ حوالى ١٠-١١ من بين هذه المسلات التى ارتفعت بزهو لتتحدث عن أمجاد روما، ومع ذلك فينبغى أن نسجل أن المهندسين الذين أقاموا هذه المسلات قد بددوا ما لها من تأثير عظيم فى النفوس حين أقاموها فوق قواعد لم

روبرت ولسون، لندن، ١٨٠٣، فى مجلدين، الفصل الثامن).
وحيث إن مسلة الأسكندرية كانت قد أزيلت من حولها الانقراض تماماً فقد أمكن قياس أطوالها بكل دقة، وكانت كما يلى:

| | | |
|----|---|---|
| ل | ب | ق |
| ٦١ | - | - |
| ٧ | ٣ | - |

الجزء الأعلى ابتداء من فجوة اللسان
الجزء السفلى تحت فجوة اللسان وداخل القاعدة الخشبية

إجمالى الطول
وإذا ما راعينا طول القدم الإنجليزى بالنسبة لطول القدم الفرنسى فإننا نجد أن الطول الإجمالى لهذه المسلة بالقدم الفرنسى ١٦ ٦٠ ٦٣
أما العرض فكان كما يلى :

| | | |
|-----|---|---|
| ل | ب | ق |
| ٧ | ٧ | ٧ |
| ٤,٥ | ١ | ٥ |

العرض عند القاعدة
العرض عند أضيق نقطة عند القمة

(نفس المؤلف، الجزء الثانى، ص ٦٢).
وهذه المقاييس تتطابق لحد كبير مع المقاييس التى حصلت عليها وقدمتها عن نفس هذه المسلة.

تحافظ على النخافة التى كانت لها، فى حين أن المصريين القدماء كانوا قد نصبوها- كما نشاهد ذلك؛ حتى الآن، فى هليوبوليس وطيبة- فوق قاعدة صغيرة يبلغ ارتفاعها من ٢٥ إلى ٣٠ سم على الأكثر فوق الرصيف أو فوق الأرض المحيطة به. وبنفس الطريقة فقد حجبنا جزئياً الأثر الرائع لأعمدة قصورنا حين أقمناها فوق قواعد نزعنا عنها - حين قللت من قوة الدعم أو الثبات البنائى الخاص بها - طابعها المزدوج : طابع الجرأة وطابع الأناقة التى ينبغى أن تبدو عليها.

ويصل وزن المسلة المقلوبة التى يبلغ طولها، بما فى ذلك قممتها الهرمية التى بتر طرفها المدبب ٦ ٦٣، أى ما يعادل ٦٢٧، ٢٠م^(١) يصل إلى حوالى ٤٦٩، ٤٥١ لبرة و ٨٠ من اللبرة ١٠٠.

(١) يقدر وزن القدم المكعب من الجرانيت المصرى المسمى بالشرقى بـ ١٨٦ لبرة زنة مارك أى ٩١ ك.ج و ٥ ديكاً جرام ويزن المتر المكعب وهو الذى يحتوى على ٢٩ ق و ١٧٤ مم، ٤٢٦ ه لبرة و (ح) ٣٦ من اللبرة زنة مارك أى ٢٦٥٦ ك.ج و ٢٤ ديكاً جرام. أما مكعب فذه المسلة فيبلغ ٧٧، ٣٩ م بما فيها ٢، ٧٧ م هى حجم قممتها الهرمية، وقد قدرنا حجمه المذكور قبل ذلك بواقع ٤٩٠ جم للبرة زنة ١٦ أونصة (أوقية).

أى ما يساوى ٠٦٨, ٢١٩ ك ج و ٤٢٠ . وفى رأى أنه يمكن الاكتفاء بسفينة حمولتها ٢٢٥ إلى ٢٥٠ طناً لكى تنقل مثل هذه المسلات، ولابد لنا أن نستنتج أنهم قد استخدموا لنقل المسلات الموجودة فى القسطنطينية وروما جسوراً عائمة أو طوافات لمعاونة السفن الشراعية أو السفن ذات المجاديف التى قامت بهذه المهمة.

واكتفى بهذا القدر من الحديث عن تلك الآثار التى تتطلب وصفاً خاصاً وبالأذات عندما يكون ذلك داخل إطار الحديث عن مجموعة المسلات المصرية؛ وأتفحص الآن الأطلال بالغة الأهمية والتى يحتويها السور.

٢٠- لا يحتوى سور هذه المدينة المهجورة والذى قويت أجزاء منه بسور ملاصق يعلوه أكثر من مائة برج من أشكال مختلفة، إلا على جزء من المدينة الإغريقية أو الرومانية القديمة التى يشار إليها من زمن طويل باسم فناء مدينة العرب، إذ يظن أنها من عمل حكام هذه الأمة التى ضمت

لامبراطوريتها، الأسكندرية ومصر كلها من اثني عشر قرناً. وفي الواقع فإن هذا السور الذي يبلغ محيطه ٧٨٩٣ متراً (٤٠٥٠ قامة) كان في جزء منه من عمل العرب في القرن التاسع، وتبدو جدرانه بشكل عام بحالة سيئة. وهذه الجدران مليئة بالثقوب (الطاقات) الصغيرة، وعدد كبير من هذه الأبراج العالية جيد البناء، كما يلاحظ أن بعضاً منها، وبالذات تلك التي تطل على البحر عند الميناءين أو بالقرب من المدينة الحديثة، يعود تاريخها إلى القرون الأولى من تاريخ الأسكندرية. وهكذا شاعت المقادير أن يكون أحد هذه الأبراج، وهو المطل على الميناء الجديد، من صنع الرومان، ولا يزال يحمل اسمهم. ويقع هذا البرج إلى الشمال وبالقرب من مسلتى كليوباترا. وهناك برجان آخران يلفتان النظر بضخامتهما ولونهما الحائل، ويقع الأول عند الميناء الجديد مطلاً على داخل الفناء (الساحة) حيث يصب مجرى ماء هندسى، أما الآخر فيقع إلى أقصى الغرب، ويطل على الميناء القديم، ويضم بداخله برجاً آخر مركزياً. وهذا البرج المزدوج

الذى تتلامس جدرانها داخلياً عن طريق قبة حلقيية (دائرية) شديد الاتساع ، كما أن بناءه بالغ الفخامة. وكان من الضروري على الأبراج الأخرى أن تخزن المياه الاحتياطية فى أجزائها السفلية؛ وقد وجدنا خزاناً جميلاً فى أحد الأبراج التى تشرف على الجانب الأوسط من المدينة الحديثة .

وقد رُم الحصن الواقع عند الزاوية الناتئة (إلى خارج المدينة) إلى الجنوب الغربى من السور، ووضع فى حالة دفاع يخشى معها بأسه لحد كبير. ويشار إلى هذا الحصن باسم الحصن المثلث، نسبة إلى الشكل الذى يميزه. وقد دمر هذا الحصن كلية بسبب النيران التى شبت بمخزن البارود فى حوالى نهاية ١٨٠١. ويقول المستر ولسن الذى ذكر هذه الواقعة فى تأريخه للحملة الانجليزية على مصر، حيث كانت الاسكندرية فى هذه الفترة تحت سيطرتهم، بأن أحداً لم يستطع معرفة سبب هذا الحادث.

وترتفع أبراج السور المبنية على نمط التاكتيك العسكرى القديم، بعظمة فوق الجدران التى كان عليها أن تدود عنها.

وكل هذه الأبراج متوجة بشرفات بارزة تمنع بفعل مراميها من الاقتراب من محيطها، ويكاد يكون لكل الأبراج الموجودة فى الخط الخارجى أبواب سرية أو أبواب خروج تؤدي إلى خنادق. وتختفى هذه الأبواب السرية اليوم- وهى التى كانت ترتفع عتبتيها إلى مترين فوق قاع الخنادق - تحت أكداس من فئات الأرصفة وقطع البناء.

ويلاحظ المرء فى جسم جدران السور، وبخاصة فى أسفل جدران معظم الأبراج، عدداً كبيراً من الأعمدة الرخامية والجرانيتية أقيمت بها بشكل أفقى، ويرى أحد أطرافها مطلاً إلى الخارج، وسوف أقدم فى الجزء الآخر من هذه الدراسة رقم (٨٩) الملاحظات التى سأوصى بها بخصوص هذا الاستعمال الشاذ لهذه الأعمدة داخل هذه الكتلة الصلبة فى مباني جدران السور. وقد كانت بعض أجزاء وأجهات هذه الجدران، وبخاصة من جهة الجنوب، مغطاة بطلاء من ملاط الجص بقصد حماية دعائمها من أثر الرطوبة البحرية، ومن

التلف الذى ينتج عن سقوط الندى المتواصل على الجزء الساحلى لمصر، وكذلك على هذه الواجهة لجدران السور بالقرب من الزاوية الناتئة إلى جنوب باب رشيد حيث نرى آثار تفتت هذه الأحجار الجيرية^(١).

٢١- ويبلغ عدد الأبواب المنفذة فى جدران هذا السور خمسة أبواب هى: اثنان يطلان على واجهة المدينة الحديثة، واحد يقع إلى الشرق ويسمى باب رشيد، وآخر يقع إلى الجنوب ويسمى باب العمود، وخامس يقع إلى الغرب ويؤدى

(١) وجوه حجارة هذه الجدران مغطاة فى جزء منها بتخاريب سوس محفورة بشكل بالغ الانتظام فى كل اتجاه حتى ليعتقد المرء لأول وهلة أنها عمل غير عادى من صنع الإنسان، ولكن عندما نتفحصها جيداً وباهتمام فاننا ندرك أنها تخاريب طبيعية نتجت فيما يقال عن طريق ديدان تقرض الحجارة، بمثل ما يوجد نوع منها يقرض الخشب فى الهواء أو فى الماء. وتقليداً لذلك، يلاحظ على سطح بعض الأحجار الجيرية أن نوع الحفر المعروف باسم نخر السوس Vermoulure قد اقتبس واتبع فى نمط العمارة الريفية rustique بمثل ما نراه منفذاً فى أسفل الجدران وعلى الأعمدة والأعمدة الناتئة فى قصرى التويليرى واللوفر فى باريس. انظر فيما يتعلق بطبيعة الديدان التى تقرض الحجارة: Le Journal des Savans de l'annee 1668

إلى الميناء القديم عن طريق البرج الضخم الواقع إلى أقصى الغرب من السور^(١) .

وقد أقيمت هذه الأبواب فى الأبراج المحصنة للسور، وقد طمست جدران الأبراج منافذها، وتستخدم هذه الأبواب للإرشاد والدفاع عن الموقع على طريقة الأبواب السرية فى أجنحة حصوننا، وتغطى الواجهة الخارجية لمصراعى كل واحد من هذه الأبواب، وهى مصنوعة من هيكل قوى من خشب الجميز، بنصال حديدية مثبتة بمسامير مديبة الرعوس ومتعددة الأشكال وإن كان حديدها قد تاكل بسبب الصدأ وأصبح فى حالة من التفتت التام بينما يكاد يكون الخشب قد ظل على حاله، بل وكأنه يكتسب المزيد من الصلابة بمرور الزمن؛

(١) لست أدخل فى عداد أبواب هذا السور بايين جديدين فتحهما الفرنسيون: الأول بالقرب من الحصن المثلث المسمى حصن باب المقابر، وهذا ليس سوى ثغرة فى جسم السور، والآخر فى الاستحكام البارز بكورتينة ملحقة بالحصن الأخير بالقرب من الباب الذى يطل على ساحة الباب الجديد، وقد أقيمت هذه الكورتينة الحصينة للدفاع عن المدينة الحديثة أثناء حصار الأسكندرية على يد الجيش الإنجليزى - التركى فى عام ١٨٠١.

ويمكننا أن نستنتج الأزمنة التى بنيت فيها هذه الأبواب عن طريق الكلمات العربية المكتوبة بخط الكوفة على واجهاتها.

٢٢- ومن بين المباني التى عثرنا عليها مبعثرة داخل السور العربى الواسع، كانت توجد قرية مجاورة لباب (بوابة) رشيد، وقد دمرت هذه القرية عن آخرها نتيجة للحرب التى دارت فى السنتين الأولى والأخيرة لاحتلالنا لهذه المدينة. أما بخصوص المباني الأخرى المبعثرة إلى الجنوب الغربى والتى لم تعان مطلقاً من أحداث الحرب، فقد ظلت على العكس من ذلك تمتد فى مساحة واسعة بل ويبدو أن مساحتها قد ازدادت اتساعاً بفعل خرائب المباني التى تحدثنا للتو عنها.

٢٣- وقد عثرنا بين كثير من الخرائب على أطلال ديرين ومعبد يهودى، وهى منشآت أسستها تلك المذاهب العديدة التى سببت فى هذه المدينة الكثير من الانشقاقات والثورات والآلام والتعاسة فى أثناء القرون الأولى للمسيحية. أما اليهود الذين ينبغى ذكرهم على الدوام، وفى المقام الأول، فى أحداث الحروب الدينية فيحتفظون هناك بمعبد يقع بالقرب وإلى الجنوب من مسلتى كليوباترا، وتقع مقابرهم إلى ماوراء

المدينة العربية، إلى الشرق من برج الرومان، ولا يستطيع المرء إلا أن يدرك مدى ارتباط وتعلق هذا الشعب الدائم بعادته القديمة حتى فى الأحجار التى يستخدمها فى المباني التى تغطى مقابر هذا المدفن.

وبالقرب، وإلى الشرق من هذا المعبد يوجد دير يونانى، هو مقر بطريك الأقباط (الروم) أى المطران الأول لهؤلاء المسيحيين الذين تشبثوا بوجودهم فى مصر بحكم أصلهم المصرى، بعد أن آلت هذه المنطقة إلى سيطرة العرب والمسلمين.

وإذا ما اتجهنا نحو وسط المدينة العربية من جهة الباب الشمالى الذى يطل على ساحة الميناء الجديد، نجد ديراً آخر للمسيحيين الكاثوليك من طبقة الدعاة أى من رجال الدين القادمين من الأرض المقدسة. ولدخول هذا الدير الذى زرتة، يصعد المرء أولاً فوق أكوام من الأنقاض تحيط به، ويضطر المرء بعد ذلك للهبوط عدة سلّمات قبل اجتياز الباب، ويكاد يعتقد المرء أنه يدوس فى داخل هذا الدير على الأرض

الأصلية للأسكندرية، ولست أعرف ما إن كان ثمة أشخاص آخرون يمكنهم أن يقدموا تفاصيل أكبر عن داخل هذه الأديرة، وقد وانتنى الرغبة والفكرة أكثر من مرة للذهاب إلى هناك لقضاء ١٥ يوماً فى هذه العزلة لكى اغترف من هناك معلومات هامة. وإننى لأشعر بشديد الأسف لأننى لم أتصل فى هذه المدينة، كما فعلت فى القاهرة، بهؤلاء الرهبان القائمين بأعمال البر والذين استبقاهم حبهم لدينهم - وهو حب يختلف أشد الاختلاف عن هذه الحماسة العمياء التى كانت لهؤلاء النساك الزاهدين فى أديرة صحراوات النطرون والصعيد - استبقاهم ولايزال، فوق نفس أطلال مدينة المسيحية العتيدة والقوية، وبين شعب لم يعد يحتفظ من بغضائه القديمة إلا بازدياد ماس بالمسيحيين.

٢٤- نميز من بين المساجد أو معابد الديانة المحمدية والتى بقيت داخل الحى العربى مسجدين، يقع أحدهما بالقرب من الباب الذى يقع إلى أقصى الغرب، ويحمل هذا المسجد منذ وقت طويل اسم مسجد (جامع) السبعين، لأنه قد حدث هنا، حسبما يقول الأثر، منذ ثلاثمائة عام قبل المسيح

أن بطليموس بن لاجوس قد أمر بترجمة التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية بواسطة السبعين مترجما الذين أرسلهم الكاهن الأكبر إليعازر. ويضم هذا المسجد ذو الشكل المربع والذي تبلغ أبعاد أى من واجهاته ١١٧م X ١٢٦م، فى داخله رواقا له صفان من الأعمدة الرخامية أو الجرانيتية، وهى من بقايا مبان قديمة خربة، وحيث لم تعد تقام فى هذا المسجد منذ وقت طويل الشعائر الإسلامية، فقد رمت جدرانه وأقيم به مربض حصين لدفعيتنا^(١).

٢٥- ويقع المسجد الثانى ويسمى جامع سان أثنان^(٢) عند منتصف المدينة على بعد ٢٥٠ متراً إلى الشرق من الدير المسيحى الذى تحدثنا للتو عنه، ويستمد هذا الجامع اسمه من

(١) انظر تصميم هذا المسجد فى A من المجلد الخامس، لوحة ٢٧.
(*) جامع سان أثنان هو كنيسة بناها الأسقف ثيوداس (٢٨٢-٣٠٠) بالقرب من الميناء الغربى، ثم أعاد بناءها وزاد من حجمها الأسقف اسكندر، وبقيت حتى نهاية القرن الرابع الكنيسة الكبرى ومقر الأسقف، وكانت هذه الكنيسة هى التى هاجمت فيها الحامية الرومانية إثناسيوس (سان أثنان) وهو على رأس المصلين. وأخيراً حولها العرب إلى مسجد، بعد أن كانت قد فقدت أهميتها بعض الشيء فى القرن السادس حين =

اسم مؤسسه، ذلك أنه قد حل محل كنيسة مسيحية، هي واحدة من الكنائس التي بناها سان أثناز في مدينة الأسكندرية عند نحو منتصف القرن الرابع، وتبلغ أطوال الواجهة الواحدة من واجهاته ٥٤ X ٦٢.

ومن المعروف أن سان أثناز، بطريرك الأسكندرية، الذي اضطهد في عهده سان مكاريوس وانسحب إلى صحراوات بحيرات النطرون حيث بنى بعض المغارات (الأديرة) التي تحمل اسمه، قد أصدر فرماناً كنسياً ضد آريوس زعيم المذهب الهرطقي للكريوسيين في سنة ٣٦٤ من الميلاد، وفي عهد هذا البطريرك تسببت الانقسامات الدينية للدوناتيين والآريوسيين لهذه المدينة البائسة في انشقاقات طويلة ودامية بنفس القدر الذي أحدثته انقسامات الـ Guelfes والـ Gibelins^(٤) التي روعت إيطاليا عند حوالى منتصف القرن

= أصبحت كنيسة القيصرون (الكيزايوم) هي الكنيسة الرئيسية. وسمى هذا المسجد بالجامع الغربى أو جامع الألف عمود. (المترجم).
(*) حزبان قويان أحدثا انقساماً كبيراً فى إيطاليا ابتداء من القرن السابع حتى القرن الخامس عشر، وكان الأولون يتبعون البابا بينما يتبع الآخرون الأباطرة الألمان. (المترجم).

السابع^(١).

ويحتوى حرم هذا المسجد الذى لم تطأ أرضه أقدام
المسيحيين، فى وسط رواقه على مبنى فاخر من الآثار
المصرية القديمة. ولم يكن يلزم أقل من جيش منتصر حتى
يمكن اجتياز عتبة هذا المسجد، وحتى يمكن انتزاع هذا الأثر
من هذا المكان، حيث ظل مجهولا ومفقودا لفترة طويلة من
الزمن، إنه حوض من الرخام الصناعى الأخضر، تحمل كل
وجوهه الخارجية والداخلية كتابات ورسوم هيروغليفية، وله
شكل شبه منحرف، أما أطواله كما قستها فهى كما يلى:
٢,٩٠ م لطول كل من الواجهتين الكبيرتين حتى زاوية اتكاء
الرأس، كما أن عرض كل منهما عند هذه النقطة يبلغ ١,٦٠ م
فيما بين طرفى قوسه الخارجى، إذ إن شكل الرأس مقوس،
أما أطوال الواجهتين الصغيرتين فهى ١,٩٣ م و ١,٢٤ م، وهو
محفور من الداخل بشكل مواز لشكله الخارجى على عمق يبلغ
١,٠١ م، فى حين يبلغ هذا العمق من القاع إلى قمة قوس

(١) انظر تصميم هذا المسجد فى A من المجلد الخامس، لوحة ٣٨.

الرأس ٢,٤٠م، أما سمك جدران هذا الحوض فيبلغ ٢٣,٠م، ولا بد أن وزنه يصل إلى ١٢-١٣ ألف ليرة زنة مارك، أى حوالى (٥٨٧٤ - ٦٣٦٣ ك.ج). وهذا الأثر هو واحد من أكثر الآثار التى بقيت من الحضارة المصرية القديمة، مدعاة للفضول، وقد كان واحداً من تلك الآثار التى كلفت بنقلها إلى فرنسا مع اثنين من زملائى^(١) لكن ما قدرته مسيرة الحرب كان

(١) كان القائد العام كليبر قد عين ثلاثة أعضاء هم السادة: نويه الفلكى Nouet ، ديكوستيل Descostils ، وأنا. وقد سافرت من القاهرة فى السابع والعشرين من بليفوز من العام الثامن أو ١٦ فبراير ١٨٠٠ لكى نبحر مع هذا الأثر الجميل لجامع سان أثناز بالاضافة إلى حوضين آخرين من القاهرة، عرف أحدهما لوقت طويل باسم حوض أو نافورة الغشاق، وكان يوجد أسفل سلم جامع ابن طولون مطلا على أكبر شوارع القاهرة، أما الآخر فقد نفذ على شكل جسم إنسان، وكان معنا كذلك مسلتان صغيرتان من الحجر الأسود يبلغ طول كل منهما من ٢ إلى ٤ أمتار، وكذلك حجر ذو كتابات ثلاث وغطاء رأس أحد التماثيل الضخمة من ممفيس، وقطع مفتتة من أحواض وتماثيل أخرى، وقد نسخت النقوش الهيروغليفية من على المسلتين الصغيرتين المصنوعتين من البازلت، كما قمت برسم تصميم ومقاطع للنافورة التى على شكل جسم إنسان. انظر التفاصيل التى قدمها السيدان جومار Jomard ورافينو Raffeneau ، فى A من المجلد الخامس، اللوحات ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥.

أمرأ مغايراً.

وإذا كانت الأحداث العسكرية الأخيرة التى أدت إلى جلائنا عن مصر قد حرمت فرنسا من إحدى المغامرات التى كان يمكنها أن تثرى متحف العاصمة، فليس للآداب والفنون أن تأسى، ف خسارتها لم تكن تامة، فهذه الغنيمة تظل بفضل عزيقتنا التى لاتلین فى متناول أيدينا، إذ يستطيع العلماء والفنانون أن يذهبوا لتأمل هذا الأثر الذى لايقدر بثمن بالنسبة للفنون والتاريخ، فى متحف لندن.

٢٦- تجاه جامع أثناز وبالقرب منه، يلاحظ المرء كذلك ثلاثة أعمدة من الجرانيت الأحمر واقفة، ويمكن أن يبلغ ارتفاع الواحد منها ١٢-١٣ متراً X ١٤٠ سم هو قطرها الأوسط، ويوازى هذا الصف من الأعمدة الجميلة التى يفصل بين كل واحد منها ١٠-٢٠ خطوة، الشارع الذى يفضى إلى بوابة فى الاتجاه القادم من الباب الغربى للميناء القديم، ويرى المرء بالمثل، من ٧ إلى ٨ أعمدة ضخمة واقفة كذلك، وملتصقة بجدران الواجهة الداخلية للبيوت الواقعة إلى اليمين عند الوصول إلى القرية المتاخمة للبوابة الشرقية للسور، وهذه

القرية اليوم محطمة عن آخرها، وفى عام ١٦٩٢ أحصى
المسيو دى ماييه Maillet القنصل الفرنسى عددا كبيرا من
هذه الأعمدة توازى أيضاً هذا الشارع القديم.

٢٧- أما الخرائب الهائلة التى نراها على بعد ١٦٠ متراً
إلى الشرق من نفس هذا المسجد، والتى تشكل بقايا جدران
ضخمة لمبانٍ قديمة من الطوب الأحمر، فتعود، مثلها مثل تلك
التي تقع على بعد ٣٥٠ متراً إلى الشمال الشرقى من جامع
السبعين، إلى قصور قديمة، حيث لانزال نلمح فيها حتى اليوم
أقواس قناطر وبقايا أحواض أو خزانات مياه، ويستخلص
من فحص هذه الأطلال، أن هذه المباني كانت تشتمل على
حمامات ونافورات عمومية، وأن كتل الأسمنت الأحمر التى
تغطى الطوب الأحمر المسطح، الكبير الحجم، المستخدم فى
هذه الأبنية السمكية والضخمة قد اكتسبت بمرور الزمن
تماسك الصخور وصلابتها الشديدة.

٢٨- وقد تناقص اليوم عدد الحمامات - وقد كان فيما
مضى هائلا - إلى حمامين أو ثلاثة فى كل هذه المدينة، وثمة
واحد من بينها مفتوح لل العامة، يقع فى ظهر خرائب القصر

بالقرب من جامع أثنان. ولن أقدم هنا وصفاً خاصاً لهذا الحمام، إذ هو يشبه كل الحمامات المفتوحة للعامة فى القاهرة وسائر المدن المصرية الأخرى، وقد نيط بأخرين غيرى أن يضيفوا رسوماً إلى التفاصيل الوصفية ليقدموها فى وصف مصر.

٢٩- أما المجرى الهندسى للمياه والذي تحمل قناطره العالية المياه من المدينة العربية إلى البرج الضخم عند البوابة الشرقية والذي يطل على ساحة الميناء الجديد، فإما أنه بناء حديث وإما أنه يعود إلى القرون الوسطى، وقد هدم هذا المجرى بسبب أعمال التحصينات الجديدة التى قام بها الفرنسيون.

٣٠- أما المباني التى فلتت - جزئياً على الأقل - من تخريب الزمن فهى خزانات المياه المخصصة للتموين السنوى للمدينة، وهذه المنشآت تحت الأرضية والتى بنيت فوقها المدينة تشكل قباباً تدعمها عواميد على شكل قناطر مقوسة من طابقين أو ثلاثة طوابق، جدرانها الداخلية مطلية بطبقة سميكة

من الأسمنت الأحمر المسط، الذى لاتنفذ من مسامه المياه، وقد أنشئت هذه الخزانات على قيعان متفاوتة الارتفاع، ولكنها على الدوام أدنى من سطح البحر بحوالى ٥-٦ أمتار، وهى واسعة وعميقة ومتعددة الفتحات، وتمثل الزوايا أباراً شبه دائرية على الحواجز الرأسية، التى نفذت فيها حفرات يستخدمها العمال كسلالم يضعون عليها أقدامهم عند الهبوط أو عند الصعود، عندما يقومون بأعمال الإصلاحات التى يستدعى الأمر تنفيذها، لتطهير الآبار من الطمى الذى ترسبه فيها مياه النيل كل عام.

إن خريطة للمنشآت تحت الأرضية لمدينة الإسكندرية ستكون مثيرة للفضول بقدر ما تكون هى مثيرة للاهتمام حين نربطها بخريطة الإسكندرية وموقعها^(١)، ذلك أن هذه الخريطة سوف تسهل لنا مهمة دراسة أحوال المناطق والأماكن القديمة

(١) عهد بتصميم الخريطة تحت الأرضية للإسكندرية إلى المسيو فاي Faye مهندس الطرق والكبارى، والذى كان مكلفاً بالأعمال الهيدروليكية للميناء، وإننى أقدم هنا هذه التفاصيل تبعاً للمقاييس والمعلومات التى توصل إليها هذا المهندس.

حين توضح لنا اتساع وكثرة مصادر المياه التى أنشأها لنفسه شعب كبير العدد، لإشباع واحدة من أهم الاحتياجات الأولى لحياته.

كان عدد الخزانات لايزال حتى بضع سنوات يصل لحوالى ٣٨٠-٤٠٠ خزان، لكنه الآن يبلغ بالكاد ثلاثمائة وثمانية خزانات، ومن المحتم أن يتناقص هذا العدد بسبب الإهمال فى صيانة الآبار والعناية بها، إلى أن يكفى تقريبا احتياجات الشعب الحالى للأسكندرية، وفى كذلك باحتياجات البحرية لعامين متتاليين. إن المرء ليستطيع أن يجزم بأن عددا هائلا من الخزانات تحت الأرضية القديمة مطمورة الآن تحت أنقاض المدينة.

ولقد تناقص عدد الخزانات الصالحة للاستعمال إلى ٢٠٧، تبلغ طاقتها بعد طرح ١ من سعتها وهو تقديرنا لحجم أعمدة ودعائم القباب والقناطر المقوسة-٤٣٨، ٣٣ مترا مكعباً، بمتوسط قدره ٣١٦١م^٣ للخزان الواحد، ومن جهة أخرى، فإذا

كان المتر المكعب من المياه الحلوة يزن ٢٠٤٢ لبرة و ١٧٣ أو ٢٠٠٠ رطل من زنة مارك أى ما يساوى ٩٧٩ ك.ج وديكاً جرام واحد (١٠ج) من العدد الدائرى مثل الطن البحرى، وحيث إن ٧٠ رطلاً تساوى ٣٤ ك ج و ٢٧ ديكاجرام هى زنة القدم المكعب من المياه الحلوة، فإننا نحصل على كمية تبلغ ٦٦,٨٧٦,٠٠٠ رطل، تعطى عندما نقسمها على ٦ أرتال هى وزن ثلاث بنات^(٩) من المياه - نصيب الرجل، الواحد فى اليوم - ١١,١٤٦,٠٠٠ نصيباً أى ما يكفى لاستهلاك ٢٠ ألفاً من الرجال-يدخل فيهم نصف حامية الأسكندرية، فى حالة الحصار-لمدة تبلغ ٥٥٧ يوماً، أى مايقرب من عام ونصف العام، ولايضع هذا الإحصاء فى اعتباره الخسارة التى تنتج بفعل البخر ونقل المياه، ذلك أن هذه الخسارة التى لايمكن تفاديها، تعوض بشكل مجز عن طريق مياه الأمطار، وكذلك مياه الآبار التى تتفاوت درجة صلاحيتها للاستعمال، والتى

(*) البنته، كيل للسوائل يسع ٥٦٨ , ٠ من اللتر. (المترجم).

نجدها فى كثير من البيوت فى المدينة الحديثة، كما قلنا من قبل، كما تعوض هذه الخسارة كذلك عن طريق مصادر أخرى سنتناولها فيما بعد.

٣١- وبخلاف هذا العدد من الخزانات فإننا نحصى هناك أيضاً، داخل الحى العربى، ٧٣ خزاناً يبلغ عمقها من ١٥ إلى ٢٠ متراً، تستقبل مياه النيل عن طريق جداول سفلية تتفرع من الخليج، سنتحدث عنها فيما بعد. وهذه الخزانات الواسعة، ذات الشكل الدائرى، والتي يبلغ عمق قاعها ١٠-١٢ متراً تحت مستوى سطح البحر، تستخدم فى تغذية الخزانات أولاً بأول للاستهلاك، كما تساهم فى رى الحدائق التى تزرع داخل المدينة. وتستخرج منها المياه بواسطة عجلات ذات قواديس، على شكل سبحة (ساقية). وتدور هذه الماكينات ذات التصميم الريفى بواسطة ثيران، تلتزم ولاية البحيرة بمد الأسكندرية بها كل عام.

٣٢- ويعهد بصيانة الخزانات والعناية بها إلى إشراف

ورقابة الشوربجى تحت إشراف الكاشف أو حاكم المدينة^(١) ويرصد للتطهير السنوى لهذه الخزانات مبلغ لا بأس به. وندد الأعمال - كما لابد أن نتصور - بالغة الأهمية، حيث تتوقف على القيام بها حياة أهل الإسكندرية. لكن هذه الصيانة، وكذا تطهير هذه الخزانات، وبالمثل تطهير كل ترع مصر، كان

(١) تتراوح المبالغ المخصصة سنوياً لمصاريف إصلاح الخزانات، بالمدينة، مثلها. فى ذلك مثل مصاريف ترعة الاسكندرية بين ٢٠ إلى ٢٥ ألف قرش (يساوى القرش ٤٠ مدينى) أى ما يبلغ من ٢٨.٥٧١ جنيهاً ١٠ سو إلى ٧,٣٥,٧١٤ سو من العملة التورية (نقد فرنسى قديم مسكوك فى مدينة تور على الطراز الملكى). وبواسطة هذه المبالغ يأخذ الحاكم على عاتقه مهمة التموين السنوى لخزانات المدينة، وتحرر حجة أصلية بهذه العملية، وترسل حسب الأصول، إلى باشا القاهرة، وتحتوى هذه الحجة على محضر يثبت أن كل الخزانات قد امتلأت بالمياه اللازمة لاستهلاك المدينة أثناء السنة.

وبخلاف هذه المبالغ، يحصل الشوربجى على أتعاب تبلغ ٣٥,٨٠٠ مدينى أو ١٢٧٨ جنيهًا و ١١ سو: ٨٥٠ منها عن طريق الكاشف و ٤٢٨ عن طريق الجمرک. وقد تحدث المسيو أوليفيه Olivier عن هذا الموضوع بالتفصيل فى تقريره عن رحلته إلى داخل الامبراطورية العثمانية، مصر واليونان، ج٣، ص ١، ٧٨؛ كما يمكن أن نعود حول هذا الموضوع إلى الدراسة عن القرعة التى تربط بين البحرين، الجزء ٣، الفصل ٣، ص ١٢٩، فيما يتصل بترعة الاسكندرية، وكذلك إلى دراسة المسيو إستيف Estève عن مالية مصر، ص ٣٧٣، المجلد الأول، الحديثة، المجلد الأول.

وسيفضل لوقت طويل لسوء الحظ، يتم بشكل ردىء، بل ويهمل كلية، مادام يتم تحت رحمة هذا الجشع الإجرامى للجنود الذين يفتشون عليه.

٣٣- وكما رأينا فى الفقرة الخاصة بترعة هذه المدينة، فى الدراسة عن القناة التى تربط بين البحرين، فإن المدينة لا تحصل على مياهها الحلو إلا عن طريق الترعة التى تأخذ مياهها من النيل، عند الرحمانية، وتعبر من الشرق إلى الغرب إقليم البحيرة بطول يبلغ ٩٣,٥٣٠ متراً. ويعبر هذه الترعة شديدة التعرج، أربع قناطر عند ضواحي الأسكندرية، وهى القناطر الوحيدة التى نجدها فوق مجراها^(١).

وهذه القناطر، وهى عبارة عن أقواس معلاة، ومبنية على الطراز القوطى، هى من إنشاء العرب، وهى كذلك فى حالة

(١) يمكن أن نعود إلى خريطة القناطر والخلجان فى الأسكندرية لنرى بداية هذه الترعة التى تجمع عندها الانجليز والأتراك وقاموا بقطعها؛ وبسبب ذلك فقد حدث، فى شهرى أبريل ومايو من سنة ١٨٠١، أن حسب البحر ماء فى حوض ماريوتيس (مربوط) عن طريق بحيرة المعدية، فأغرقت ما يقرب من ثلاثين قرية فى منطقة لاينبغى أن تروىها سوى مياه النيل وحدها، كما كان يحدث وقت وجود هذا الاقليم القديم.

سيئة بعض الشيء. ولم تعد هذه التربة التى أفاض المؤرخون العرب فى وصفها وامتداحها، سوى امتداد لحفرة، لم تزل - على الرغم من أنها توشك أن تكون شبه مردومة - تتجه إلى المدينة، حيث توزع مياه النهر على كل الخزانات، عن طريق أربعة جداول سفلية. وأقصى هذه الجداول من جهة الغرب هو نفس امتداد التربة، التى تذهب لتصب فى الميناء القديم على شكل مورد للسفن (المكان الذى تتزود فيه السفن بالمياه العذبة). وإلى هذا المورد، الضرورى للغاية لمنشأة بحرية، والذى يشبه بالنسبة لهذا الميناء خزان مياه حقيقى، تذهب السفن للتزود بالمياه، أوقات فيضان النيل^(١).

(١) حددنا بمربعات مرسومة بخطوط منقطة فوق جداول تربة الأسكندرية، فتحات هذه المجارى الهندسية، وكانت هذه فتحات لادخال الضوء والهواء إلى هذه المجارى تحت الأرضية، ولتسهيل عمليات التطهير والصيانة السنوية اللازمة.

ويتحدث المسعودى ما ييه، الذى سبقت الإشارة إليه، عن قنوات أخرى تحت أرضية كانت فى عصره (١٦٩٢-١٧٣٢) تنقل مياه النيل، محاذية الساحل كله من الأسكندرية حتى أبى قير إلى الشرق، أى بطول يزيد =

٣٤- ووسط الخرائب التى انتهينا من عبورها، لا يجد المرء ما يمكن أن يجذب ناظره أو يوقف خطو المسافر المحزون سوى خضرة بعض شتلات النخيل فى الحدائق القائمة حول المساكن المنعزلة والتى تحيط بها. وبخلاف أشجار النخيل يجد المرء فى هذه الحدائق أشجار التين، والتوت، والرمان، والمشمش، والبرتقال، والعناب، والحنة، وشجيرات أخرى. ومن بين الخضروات يزرع هناك الباذنجان والكرنب، والخس، والهندباء، والخرشوف. إلخ؛ وفضلاً عن ذلك، فإن النسيم الذى يستمتع به المرء فى هذه الحدائق سيئة التنظيم، يجعل الطقس مناسباً لدرجة كبيرة حتى ليغامر المرء بأن يصل إليها، من خلال أترية بيضاء مألحة فى أرض ملتبهة.

تتعالى ٢٠,٠٠٠ متر، وما يقرب من ٥,٠٠٠ إلى ٦,٠٠٠ متر بحذاء المائدة إلى الجنوب الغربى، ويقول هذا القنصل الفرنسى الذى أقام أربعين عاماً: "إن التربة تحت الأرضية، التى كانت تمتد إلى الشرق، كانت واسعة حتى ليستطيع رجل أن يعبرها واقفاً بكامل راحته". وهذا ما يلاحظه المرء، فى الواقع، فى الجداول الأربعة المتجهة إلى الجنوب، ويمكن الظن بأن التربة التى تحدث عنها المسعودى ما ييه، هى التربة القديمة المكشوفة، والتى يحتمل أن تكون قد غطيت بمرور الزمن، وكانت هذه تتجه من الإسكندرية إلى كانوب وميراكلى، أى أبى قير حالياً.

٣٥- وعندما نخرج من هذا السور لنجتازه إلى خارجه،
 فإننا لا نقابل سوى مبنى واحد نستطيع بسبب ارتفاعه، وإذا
 ما اعتليناه، أن نبصر ما يدور فى أعالي البحار. وأود أن
 أتحدث هنا عن هذا العمود الضخم الجدير بلفت أنظار
 المسافرين الذى يتجه إلى مصر عن طريق الأسكندرية: يقوم
 هذا العمود، الذى نلمحه إلى جنوب سور المدينة العربية، فوق
 مرتفع يبلغ ١٢-١٥ متراً، نلاحظ فيه كتلا هائلة من مبان
 قديمة، فوق هذا المرتفع أقيم هذا العمود الأثرى من الجرانيت
 الشرقى، ويبلغ ارتفاع جذعه $3 \frac{1}{3}$ أو ٦٣ ٢٠,٥٠ متراً على
 محيط أوسع يبلغ ٨ ١٠ ٧ أو ٢,٥٦ م، ويزن ٧٣٠,٧٣٠ ه
 رطلا من زنة مارك أى ٢٨١,١٢٨ كم و ٧٠ ديكاً جرام
 (٧٠٠ ج) ل، ب غير شامل قاعدته وأساسه وقمته التى يبلغ
 ارتفاعها ٩ ٤ ٢٥ أى ٨,٢٥ م، وهو ما يجعل الطول الإجمالى
 للأثر: ٦ ٨٨ ق أى ٢٨,٧٥ م. ويبدو أن هذا العمود، الذى كان
 يسمى حتى هذه اللحظة على نحو غير دقيق عمود بومبى، قد

أقيم على شرف الامبراطور سبتيموس - سيفيروس^(١) . ويمكن

(١) جاء أبو الفداء، أمير سوريا، والمؤرخ الجغرافى العربى إلى المدينة عام ١٢٨٣. ويقول هذا المؤلف إن العمود فى زمنه كان يحمل اسم (سبتيم - سيفير - Septime Sévère) كما أنه قد أقيم على يد أهل الاسكندرية اعترافاً منهم بالمكاسب التى حصلوا عليها من هذا الامبراطور الذى زار مصر سنة ٢٠٠ ميلادية، ومما لا جدال فيه أن الكتابات اليونانية التى كان يصعب قراءتها فى زمن أبى الفداء، والتى لم يعد من الممكن قراءتها الآن، كانت فى ذلك الوقت لاتزال تشهد على هذا الحدث التاريخى، ويدعى عالم انجليزى، أمكنه فيما يقال أن يفك رموز هذه الكتابات بعد رحيلنا، أنها تحمل فى الواقع على الاعتقاد بأن هذا العمود قد أقيم على شرف سبتيموس - سيفيروس، ويقدم المسيو دى شاتوبريان Chateaubriand الذى زار المدينة فى أكتوبر وديسمبر ١٨٠٦ هذا النص اليونانى الذى نترجمه كما يلى: "إلى امبراطور الاسكندرية البالغ الحكمة، دقلديانوس أوغسطوس، حاكم مصر" لكن هذا النص لا يهدم فى رأى الشهادات التى تنسب إقامته إلى سبتيموس - سيفيروس، انظر: L'itinéraire de Jerusalem a Paris, Par M. de Chateaubriand t. III Pag 100 etc.

ويمكن أن نرى الوصف الخاص الذى قدمه عن هذا العمود المسيو نورى Norry المهندس المعمارى، وعضو مجمع العلوم والفنون فى مصر، فى مجلدات العصور القديمة، وصف مصر، فصل ٢٦.

ويقول المستر ولسون، فى الجزء الثانى من مؤلفه، ص ١٤٩ " من بين الآثار القديمة التى عثر عليها الإنجليز، حجريلفت الأنظار وهو على شكل مائدة كبيرة عليها نقوش هذه ترجمتها: إلى كل من يهمله الأمر، أقيم هذا العمود على شرف سبتيموس سيفيروس على يد جنود الفيلق الحادى عشر. وهذه المائدة طرف الجنرال كوت Coat".

القول بأنه يشبه برجاً، كان الهدف من إقامته أن يستعمل دليلاً للسفن التى يمكنها أن تلمحه على بعد يزيد على فرسخين فى الماء، فى الوقت الذى تختفى فيه عن الأنظار الأبراج المقامة فى الحى العربى فى أرض سواحل مصر المنخفضة والمتعرجة. ونرى أن جذع هذا العمود يزيد فى وزنه عن وزن المسلة المقلوبة بحوالى الربع وهى المسلة التى تحدثنا عنها من قبل، والتى كان يلزم لنقلها سفينة تبلغ حمولتها ٣٠٠ طن. وإن أوصل الحديث عن هذا الأثر، الذى يمكن أن نشاهد قمامته وتفصيله فى A من المجلد الخامس، اللوحة ٣٤.

٣٦- ولكى نتابع بانتظام، الأبحاث الأخيرة التى كان علينا القيام بها، شأننا فى ذلك شأن المسافر الذى يعد خطواته حتى لا يعود أدراجه من جديد، فإن علينا أن نعود إلى الميناء الجديد، وأن نعبّر، من الشرق إلى الغرب، الخرائب الأخرى التى توجد خارج هذه المدينة.

عندما نخرج من السور العربى، عن طريق برج الرومان

المؤدى إلى الميناء الجديد، نجد فى كل خطوة - إذا ماسرنا
بحذاء الشاطئ - بقايا وأثاراً من مبان قديمة، مثل
الحمامات، والبواكى التى نتعرف على كتل بنائها من الطوب
الأحمر والأسمنت وكتل من الأحجار الضخمة، وأجزاء من
أرصعة كانت جزءاً من ميناء، وخرائب أخرى، ويمكن القول
بأن هذا الجزء الشرقى للميناء الجديد، هو الآن مهجور تماماً،
بدءاً من برج الرومان حتى رأس المنارة Pharillon ، وملء
بأنقاض المباني القديمة، التى قلبتها يد البشر رأساً على
عقب، أكثر مما فعلت أمواج البحر التى كانت تضرب سفحها
بلا انقطاع.

٣٧- والـ Pharillon (المنارة) هو ذلك الحصن الصغير
الذى سبق أن تحدثنا عنه، والذى يتخذ اسمه من موقعه تجاه
حصن الفنار، وهو مقام على حافة شريط من الشعب
الصخرية التى تقفل مدخل الميناء الجديد الذى يقوم الفنار
بالدفاع عنه. أما الجسر الذى يؤدى إلى هذا الحصن
الصغير، فهو بنفس مستوى مياه البحر التى تغطيه فى أيام

الطقس المعتم (الشتوى). وهذا الحصن الصغير، ليس اليوم سوى برج مربع الشكل تحول إلى خراب. وقد شاهدت هناك بعض قطع ضخمة من مدفع حديدى، حولته الأكسدة التى تسببها الرطوبة المالحة، الناتجة عن مياه البحر، إلى مثل هذه الحالة من التفتت، حتى أن الحديد يتساقط إذا لامسته النصال أو أية قطع معدنية.

٣٨- ووسط الخرائب الموجودة على الشاطئ إلى الشرق، لانجد سوى خرائب فناء واسع تغلقه جدران يبلغ ارتفاعها ٧-٨ أمتار، وواجهات هذا السور ذى الجوانب الأربعة، والمفتوحة من بعض الجهات والتى تعلوها بعض الأبراج الصغيرة، يمكن أن يبلغ طولها من ١٢٠ إلى ١٤٠ متراً، وجدران هذه الخرائب الضخمة التى تسمى بلغة البلاد: قصر القياصرة، ذات سمك كبير، ويشكل بناؤها- وهو من الحجارة التى تميل إلى اللون الأبيض، ومن النوع الجبرى، وكذلك من الطوب الأحمر ذى الأحجام الكبيرة - الطبقة المميزة من الطبقات الأفقية والمنفصلة لارتفاعات مختلفة، على طريقة

المصانع والمحلات الرومانية. وفوق المرتفعات التى تحيط
بخرائب هذا القصر، الذى يبعد بمسافة ٤٣٥٠ متراً إلى
الشمال الشرقى من بوابة رشيد، دارت معركة ٣٠ فنتوز من
العام التاسع (٢١ مارس ١٨٠١) بين الجيش الفرنسى من
جهة، والجيش الإنجليزى - التركى من جهة أخرى.

٣٩- ولا يعود الإنسان يقابل على شبه الجزيرة الطويلة
والضيقة والتى تمتد إلى الشمال الشرقى حتى أبى قير، إلا
بعض الخزانات والبيوت المتفرقة وسط حقول مزروعة أو
غابات أشجار النخيل، تحيط بها رمال الصحراء ومياه البحر
إلى الشمال ومياه بحيرة المعدية إلى الجنوب من كل جهة.

٤٠- أما أبو قير، الذى يعيد إلى الأذهان على الدوام
أعظم ذكرياتنا من انتكاسات وانتصارات الجيش الفرنسى
فى مصر، فهو رأس متقدم فى البحر، يشغل قمته أحد
الحصون، وتبلغ المسافة بينه وبين حصن الفنار فى خط
مستقيم، ٢٢,٢١٠ متراً، كما تبلغ ٢٠,٧٠٠ م إلى الشمال
الشرقى من ميناء رشيد. وقد دمرت القرية التى كانت تقوم

تحت جدران هذا الحصن عن آخرها أثناء معركة أبى قير
وحصار هذا الحصن نفسه، من ٧ إلى ١٥ ترميدور من العام
السابع (٢٥ يولية إلى ٢ أغسطس ١٧٩٩)^(١).

٤١- وقبل الوصول إلى أبى قير، نجد على الشاطئ
وعلى مسافة حوالى ٢٥٠٠ م إلى الجنوب الغربى لهذا
الحصن، مرتفعات تكونت من الانقراض التى تعود إلى كانوب
القديم (أبى قير حالياً)، ومن بين قطع الجرانيت والرخام
المبعثرة على الشاطئ، نميز أبدان الأعمدة وتيجان بعض
الأعمدة، وكرياتيد^(٢)، وأبا هول، وتماثيل أخرى مشوهة أو
محطمة؛ وعند هبوطنا إلى الساحل، نجتاز بعض منشآت
تحت أرضية يرتفع مستوى أرضها ٥ إلى ٦ أمتار فوق
مستوى مياه البحر؛ ونرى هناك بقايا حمام محفور فى الحجر
الجيرى الذى يقفل ويحد ساحل الأسكندرية حتى أبى قير،
حيث يتوقف فجأة كى لا يظهر بعد ذلك إلا على شاطئ

(١) انظر شكل هذا الحصن، الدولة الحديثة، مجلد ١، اللوحة ٨٣.
(*) تمثال لامرأة يقوم مقام الأعمدة (المترجم).

سوريا فى الشرق، وينتهى هذا الحمام الذى يضم حجرات متنوعة موزعة بشكل منتظم، وإلى الشمال، بردهة نصف دائرية، تصل منها مياه البحر عن طريق أربع فتحات تتصل بدھليز يدور بشكل مركزى على هيئة نصف دائرة، وتخترق بواكى هذا الدھليز نفسه، إلى الخارج، أربع فتحات أخرى تصب فى البحر، متخذة اتجاها معاكساً للاتجاه الذى تتخذه الفتحات الأربع الداخلية، وكل حجرات هذا الحمام، وكذلك هذه الدھاليز الدائرية منحوتة فى الصخور. والفكرة من وراء هذا التصميم، وهى واضحة تماماً، تهدف كما يمكن لنا أن نستنتج إلى تكسير وإضعاف ضربات أمواج البحر حتى لا تدخل إلى الحمام إلا مياه هادئة وشفافة؛ وقد تحممت عدة مرات فى هذه الحمامات. أما حجراته التى يبلغ عددها سبع حجرات أو ثمانى، فهى تغص بالرمال عن آخرها، فيما عدا أكبر هذه الحجرات التى لا تزال تحتفظ ب ٣ إلى ٤ أقدام من المياه، عند مصبات الفتحات الداخلية الأربع للدھليز الدائرى، ونصل إلى هذا الحمام عن طريق طرقات وحجرات سفلية، وقد استوجب

الأمر أن يكون حماما مغطى، ولا بد أنه كان تابعا لأحد القصور أو لمنشأة عامة على درجة كبيرة من الأهمية، ونجد أثارا مشابها على كل ساحل المقابر فى جنوب غرب الاسكندرية. وقد كانت الحمامات بلا جدال ذات نفع عظيم كما كانت تشكل متعة كبيرة فى هذه المناطق الساحلية، ويمكن لنا أن نعتقد أنها كانت تساهم فى مباهاج تلك الأعياد الخليفة التى كان يتوجه إليها شباب الاسكندرية فى شكل جماهير، والتى كانت تقوم فى مدينتى كانوب وتابوزيريس، ولكن، فلنعد الآن إلى قصر القياصرة، الذى لم نبتعد عنه إلا لإلقاء الضوء فى كلمات سريعة على الأرض التى تحد من جهة الشرق مدينة الاسكندرية.

٤٢- إذا ما توجه المرء من قصر القياصرة نحو الجنوب وخارج سور المدينة فإنه سيقابل سهلا منخفضا ومالعا، حيث يغوص سطحه الرطيب محدثا شيئا من الطقطقة تحت أقدام المسافرين، كما لو كان يطاء ثلجا متجمدا؛ ثم وبعد أن يترك عن يمينه المرتفعات التى ليست - كما سبق أن قلنا -

سوى أكوام من الأنقاض، فإنه يصل إلى القنطرة القصوى من جهة الشرق، المقامة فوق الخليج أو ترعة الأسكندرية، التي نجد على شواطئها عدداً هائلاً من الآبار وخزانات المياه. ولكي نتعرف جيداً على شكل هذه القنطرة، وهي شبيهة بشكل القناطر الثلاث الأخرى التي لاتزال باقية حتى اليوم داخل سور المدينة باتجاه الغرب، فإن علينا أن نعود إلى الرسوم التي قدمها لنا المسيو بلزك^(١). ووجود هذه القناطر الأربع، وهي الوحيدة التي بنيت في ضواحي الأسكندرية، على كل مجرى الترعة التي يبلغ طولها حتى الرحمانية ٥٣٠, ٩٣ متراً، يبرهن إلى أى حد كانت هذه المنطقة ولا بد مزروعة وأهلة في عهد الرومان، وخلفائهم العرب، وكان بمقدور المرء حتى بضع سنوات خلت، أن يرى بعض غابات النخيل على شواطئ هذه الترعة، وكذلك في شبه الجزيرة التي تمتد حتى أبى قير. لكن هذه الأشجار، التي يجد الناس في السعى إلى ظلالها الضئيلة، والتي تعد ثمارها واحدة من أكبر مصادر الدخل في

(١) انظر الأطلس، الدولة الحديثة، المجلد الثاني، اللوحة ٩٩.

مصر، قد اختفت مع مجيء الجيوش المتعادية التي دمرت،
الجيش تلو الجيش، ضواحي هذه المدينة فيما بين عامي
١٧٩٨ و١٨٠١.

٤٣- بالقرب، وإلى الجنوب من عمود سبتيموس
سيفيروس، وهى تسمية، أصبح من المناسب منذ الآن أن
نطلقها على هذا المبنى، يوجد مكان فسيح، لايسمح شكله
المستطيل الذى ظل يحتفظ به، وكذلك نتوء شوكتة المقنطرة
والمنحوتة فى صخرة صلبة، بأن يتسرب أى شك فى أن هذا
ليس سوى بقايا مضمار (لسباق الخيل) قديم يبلغ طوله
١٧, ٥٥٤م وعرضه ٦١, ٥١م، أما طوله من الخارج من فوق
المحور الكبير، فيبلغ ٦٠, ٦١٤م، وهو ما يدل على أن عرض
المدرج المخصص للمتفرجين على الألعاب يبلغ ٣٠ متراً.

وتبعاً لهذه المقاييس، فإننا نستنتج أن العربات التى كان
يراهن عليها فى ألعاب السيرك كان عليها أن تعبر ٦, ٥٠
غلة يونانية أو أولمبية^(١). وعند الطرف الغربى من الشوكة،

(١) انظر رسم السيرك للمسيو بلزاك فى A من المجلد الخامس، اللوحة ٣٩.

نرى ثقباً عميقاً، حيث كانت تنتهى - على الأرجح - ترعة تتصل ببجيرة مريوط، كانت تستخدم، إذا صح هذا الاحتمال، فى إدخال المياه إلى حلبة السيرك.

٤٤- وبعد أن تعبر التربة عند مرفقها الموجود فى أقصى الغرب، فإنك تقابل مرتفعاً مكوناً من صخرة حجرية صلبة، تجد فيها مغارات مقطوعة على شكل دهاليز أو كهوف تحت أرضية، وتعرف هذه الكهوف المخصصة للدفن باسم : المقابر.

ويلاحظ عند الحواجز الرأسية لهذه الدهاليز وحجراتها ثلاثة أو أربعة صفوف من المقابر المحفورة فى الصخور فوق بعضها البعض، والتي لا يظهر منها بسبب هذه الطريقة فى الحفر إلا الجزء الذى تنتهى إليه أقدام الجثث التى تدفن فيها. ويختلف هذا الوضع - البالغ الفائدة من كافة النواحي - عن الوضع الذى نلاحظه فى مقابر مالطة وروما، التى زرتها، الأولى فى يونية ١٧٩٨ والأخيرة فى مارس ١٨١٠، حيث تحفر كلها هناك على شكل أخصاص أو حجرات رمسية (مقابر)

بالاتجاه الطولى للدهاليز. ويشعر المرء على الفور أن مثل هذا الوضع الذى يتطلب فراغا كبيرا لابد وأن يضم عدداً أقل من الأجساد عما لو كان قد حفر على غرار مقابر الأسكندرية، ومن جهة أخرى فإن التشابه القائم بين مقابر الأسكندرية هذه وبين مقابر روما ومالطة ينبغى أن يدفعنا للاعتقاد بأن مقابر الأسكندرية كانت تستخدم مقابر للمسيحيين الأوائل، أثناء اضطهادات الكنيسة، فى عهد أباطرة الشرق.

٤٥- ويتردد أهالى الأسكندرية والعرب البدو على المسجد الذى يقع إلى الغرب قريبا من هذه المقابر، وهم يذهبون إلى هناك لأداء الصلوات وتقديم الصدقات فى فترات معينة من السنة.

٤٦- يشكل الشاطئ الذى ينحدر إلى الجنوب محيطة بخليج الميناء القديم، صخرة جيرية تلطمها المياه وتفت فيها منذ قرون، ويتراوح ارتفاعها من ٥ إلى ١٠ أقدام فوق مستوى سطح البحر. وقد اكتشفنا على هذا الشاطئ أعداداً لاحصر لها من الكهوف تحت الأرضية، كانت ملحقة دون شك

بمدينة المقابر للأسكندرية القديمة، وجزء من هذه الكهوف مكشوف، وبعض منها تسده الرمال، ونتيجة لذلك فقد أعطى لكل هذا الجزء من الساحل اسم شاطئ المقابر.

وكل هذه المقابر تؤدي إلى البحر، ولها حمامات يتفاوت حجم اتساعها، أما أكثرها لفتاً للأنظار، فهي تلك المقبرة التي تقع على بعد ٣٥١٠ مترات إلى الجنوب الغربى من عمود سبتيموس سيفيروس، وكان العامة يطلقون عليها - وقد جانبهم الصواب فى ذلك - اسم حمامات كليوباترا؛ وقد أشرنا إليها على خريطتنا تحت اسم: معبد تحت أرضى، ولا يمكن للمرء إلا بمشقة بالغة، وبلاستعانة بمشاعل، أن يدخل هذا المعبد نصف المطموس بفعل رمال الصحراء وأنقاض المباني التي تحيط به، وهو فسيح، ومنتظم، وعمارته بسيطة، تتناسب مع الغرض من إقامته^(١).

(١) انظر تصميم هذا المعبد تحت الأرضى الذى رسمه بعناية السيدان فاي Faye ومارتان Martin، مهندسا الطرق والكبارى، من المجلد الخامس، اللوحة ٤٢.

وتدل أكوام العظام، وهى التى لايمكن أن تكون إلا عظام خراف وجمال وخيل وماشية أخرى، على أن مساكن الموت هذه كانت تستخدم كمأوى لحيوانات متوحشة أو لكواسر جارحة كانت تجر إلى هذه الكهوف جثث فرائسها، وينبغى على المرء أن يدلف إلى هذه المساكن السفلية بحذر شديد، مخافة أن تفاجئه بعض هذه الحيوانات المتوحشة التى لاتخرج منها الا للبحث فى عتمة الليالى عن غذائها والذى تجده فى معظم الأحيان فى مقابر المدينة.

وكثيراً ما يقابل المرء فى هذه المنطقة وفى ضواحيها، كمية كبيرة من فتات وقطع الرخام من كل صنف، مما يشهد بأن هذه الأماكن كانت تضم مباني جنازية على درجة من الأهمية، ولا ينبغى أن نولى بالاً لما يحكيه العربان، الذين يدعون بأن هذه المقابر تمر من تحت حوض مريوط وأن دهاليزها السفلية تمتد حتى دهاليز الأهرام، فهذه خرافة بيئة، ومع ذلك فهذه الدهاليز تمتد بالفعل لمسافة كبيرة، ولا بد أنها تشكل ما يشبه اللابرنث (التيه).

٤٧- وعندما يواصل المرء مسيرته نحو الجنوب الغربى فإنه يجد فيما وراء هذه المقبرة الأخيرة بقايا قناة لابد أنها كانت تربط التربة ببحيرة ماريوتيس، وتقع هذه القناة على بعد ٥٨٥٠ متراً، من عمود سيفيروس، ويبلغ طول شواطئها من البحر حتى البحيرة ١٤١٦ قدماً، أو ١١٣٣ متراً، وهذه القناة مطموسة، ولايزيد ارتفاعها الآن فوق مستوى سطح البحر بأكثر من متر، ويكفى لإعادتها إلى العمل، القيام ببعض الأعمال البسيطة والميسورة للغاية؛ وسوف يعود ذلك بأجل الفوائد إلى تجارة الأسكندرية وملاحتها.

٤٨- ولايشكل الجزء الباقي من الشاطئ حتى الشيخ (العجمى) إلا صحراء، ثم تبدأ السلسلة الصخرية، التى تحيط به إلى ماوراء آثار القناة التى تحدثنا عنها للتو، والتى تسمح لنا بأن نلقى نظرة غير متمكنة على المهاجر العديدة التى استغلت فى الماضى، والتى استخدمت حجارته دون شك فى بناء مدينة الأسكندرية.

ويزرع حول لسان المياه المالحة الذى نجده قبل أن نصل

إلى الشيخ (العجمي) البطيخ والشمام من نوع رائع، وتدعم هذه الزراعة الرأي القائل بأن مياه هذا اللسان تأتي في جزء كبير منها عن طريق المطر، وتستخدم هذه المياه في رى هذه الحقول ذات الطبيعة الرملية.

٤٩- أما الشيخ أو الضريح (العجمي) فهو حصن صغير أقيم على قمة السلاسل الصخرية التي هي في مستوى سطح مياه لسان ينتهى عند الجنوب الغربى من خليج الأسكندرية، ولا يحى هذا الحصن، الذى تبلغ المسافة بينه وبين حصن الفنار حوالى ١١,٧٢٨ مترا - إلا على نحو ضعيف - منفذ مضيق الخليج؛ وبالقرب من هذا اللسان قام الجيش الفرنسى بعملية انزال جنوده فى ١٣ ميسيدور من العام السادس (أول يولية ١٧٩٨).

٥٠- ويجد القارئ فى دراستى عن الجزء الغربى من ولاية البحيرة وعن بحيرة مريوط^(٩)، وصف الجزء الباقي من الساحل والذى يمتد حتى برج العرب فى الجنوب الغربى حيث تنتهى معه أرض الأسكندرية، ويبقى على الآن أن أتكلم عن

(*) انظر المجلد الثانى من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر. (المترجم).

الطبيعة الجذباء لهذه المدينة.

٥١- لا تتكون أرض الأسكندرية، وكذا كل أرض شبه جزيرة رأس أبى قير فى الشرق، وحتى برج العرب فى الجنوب الغربى بطول يبلغ ٦-٧ ميريامتر، إلا من صخرة جيرية ضاربة إلى البياض؛ وتغطيها فى جزء منها كتبان رملية متحركة.

وعلى الرغم من أن هذه الأرض ذات طبيعة رملية، قاحلة وملحية، فإننا نجد فيها فى نفس الوقت بعض المياه المالحة والتي تتفاوت درجة صلاحيتها للشرب؛ ويتحقق ذلك بالنسبة لشاطئ شبه الجزيرة إلى الشمال الشرقى وإلى الجنوب الغربى، بمجرد أن نحفر عدة أقدام فى رمال هذه الصحراوات، وقد اضطر الجيش الإنجليزى - التركى لاستخدام هذه المياه أثناء الشهور الستة التى حاصر خلالها الأسكندرية.

ومن بين النباتات البرية التى تتكاثر بشكل طبيعى على أرض الصحراء المجاورة نجد الـ nitraire

والـ *ficoides* وأنواعاً مختلفة أخرى من الصودا التي يجمع رمادها القلوى لينقل تجارياً إلى أوروبا، حيث يستخدم في صناعة الصابون^(١).

٥٢- قبل أن تفرق مياه البحر بحيرة مريوط، كنا نرى على شواطئ هذه البحيرة التي يمتلئ حوضها بمياه المطر، وبالمياه التي يصبها النهر أثناء فيضانه في الترع التي تتفرع عنه، كنا نرى كما نرى الآن على شواطئ بحيرات أخرى في مصر السفلى أعداداً هائلة من الطيور من كل صنف مثل أبي قردان الأبيض، وطائر أبي منجل، والنحام (طائر طويل الساق والعنق) والبط البري، والبط المائي، وزمج الماء (طائر بحري طويل الريش)، والجمع، وأنواع أخرى؛ وفي تلك الأيام كان العربان يجلبون إلى الأسكندرية البط، والبط المائي، الذي

(١) نجد في روايات سونيني *Sonnini* وأوليفيه *Olivier* اللذين سبقتا رحلتهما إلى مصر الحملة الفرنسية بعدة سنوات، تفاصيل هامة فيما يختص بتاريخ الأسكندرية، وتجاريتها، وطبيعة الصحارات التي تحيط بها. انظر: *Le Voyage en Egypte dans l'année 1778 par: Sonnini, tome Ier, Chap VII, VIII, IX et X, pag 100 a 156, Le Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et la Perse. en 1792, par Olivier, tom. III, pag 1 à 78.*

يصيدونه بواسطة الشباك. وهناك نوع آخر من الطيور التى تستهلك منها كمية كبيرة فى هذه المدينة، والتى لايتطلب صيدها أدنى مشقة، تلك هى طيور السمان، وعصفور التين، والقبرة، وطيور أخرى مهاجرة، تسقط بفعل الإعياء، بعد الرحلة الطويلة التى قطعتها فوق البحار والتى تقوم بها كل عام فى شهر أكتوبر، تسقط منهكة على أول شريط من أرض مصر، لتقع فريسة فى يد الإنسان. وقد كان بإمكاننا - أثناء عودتنا إلى فرنسا، فى ٢٧ إلى ٢٩ سبتمبر ١٨٠١ وتوجهنا من سواحل مصر- أن نلاحظ الهجرات الموسمية للطيور المسافرة، وكانت هذه تسقط جماعات مصطدمة بصواري وأحبال سفينتنا، فى حين لم تكن هذه الطيور قد عبرت بعد نصف المتوسط، وكان بعضها يستريح للحظات على سطح الماء، محاذراً ألا يدع نفسه يغوص بجناحه أكثر مما ينبغى، وقد شاهدنا بعضاً منها لا تستطيع النهوض برغم المجهود الكبير الذى تبذله لتعاود تحليقها فى الأجواء، ذلك أنها كانت قد بلت أجنحتها أكثر مما يلزم.

٥٣- وأخيراً؛ فمن بين الحيوانات ذوات الأربع، التى

تقترب من ضواحي الأسكندرية، والتي تجتاز أسوارها فى غالب الأحيان، نذكر ابن أوى، والضبع، وتتخذ هذه الحيوانات الضارية عادة مأويها فى قاع الكهوف والمغارات تحت الأرضية، ولا تخرج منها إلا ليلاً، كى تذهب لتبحث عن فرائسها فى المقابر وأماكن رمى القاذورات، وتجرحها من مسافات كبيرة حتى مخابئها. ويمكننا أن نعد أيضاً من بين هذه الحيوانات النهمة، الكلب المصرى، على الرغم من أنه يقطن نهاراً فى سلام فى القرى، وضواحي المدن الآهلة بالسكان، فإنه يحيا طليقاً لا صاحب له، فى قطعان أو عائلات متفرقة^(١) تنتشر فى الليل وسط المساكن، كى تبحث

(١) ليست الكلاب فى مصر، على نفس حال مثيلاتها فى البلاد الأخرى، أى أنها ليست حيوانات مستأنسة؛ ويلاحظ أنها تعيش هناك وسط المدن والقرى، حرة طليقة بلا صاحب، ولكن فى شكل أسر متميزة فى غالب الأحيان فى هذا الحى أو ذاك حسب اختيارها، تطارد وتسىء معاملة الكلاب الأخرى التى تريد اقتحام حياها، ومن المعروف أنه توجد فى مصر منشآت خيرية لتأمين غذاء الكلاب والطيور. وهذه الأخيرة من النوع أكل الحبوب، وكانت تجد الحب يومياً فى أصص على شكل مناضيد صغيرة كانت توضع فى اهلة مآذن المساجد. وتعود هذه العادة إلى بقية من الاحترام المقدس الذى كان القدماء المصريين يحملونه للحيوانات، وأذكر هنا أننا فى الأيام الأولى من إقامتنا فى=

عن غذائها.

وكان كل الجزء الأول من الخليج، فيما بين القناطر الأربع، بطول ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠م، يزرع على يد العربان، بواسطة المياه التى يحصلون عليها من الآبار وخزانات المياه العديدة التى تحيط بجسور هذه القرعة. وهكذا كنا نرى هناك بعض حقول البرسيم، والحلبة، والشعير، والقمح، كما كانوا يزرعون أيضاً بعض البقوليات التى نجدها أكثر كثافة فى بساتين المدينة العربية، وعلى سبيل المثال:

الفوم، والفول، والبادنجان، والخس، والبصل، وغيرها.

٥٤- تلك كانت لوحة للحالة التى بدت عليها الأسكندرية

= مصر، كنا مضطرين أن نرسل ليلا، إلى الأسكندرية، والقاهرة، ورشيد، ودمياط، وكذلك إلى مدن أخرى، سرايا عديدة - كنا نفعل ذلك كما لو كان إجراء حربياً وقائياً - لمفاجأة وقتل هذه العصابات من الكلاب الجائعة والمتشردة، والتى كان نباحها الحزين والمرعب حقاً يبدو كما لو كان يستثير الناس ويحفزهم ليلا للقتال، ولم يكن يخطر على بالنا فى الواقع أن السكان كانوا سيسمحون مطلقاً، قبل مجيئنا، بترك هذا النوع من الحيوانات غير المرغوب فيها ليتضاعف عددها، لو أن هذه الحيوانات كانت معتادة على تعكير هدوء الليالى هكذا بنباحها، الذى لا يمكن - فى رأينا - أن يسببه إلا فزع، كان مجهولاً قبل مجيئنا.

للجيش الفرنسى، قرب نهاية القرن الثامن عشر، وبعد ما يزيد على ألفى عام من تأسيسها.

وهنا، أصل إلى ختام وصفى للحالة الحديثة لهذه المدينة، ثم أمضى بعد ذلك إلى القسم الثانى من هذه الدراسة؛ تلك التى تهدف إلى معرفة حالتها القديمة، أيام مجدها وازدهارها تحت حكم الإغريق والرومان.

* * *

القسم الثانى

الحالة القديمة لمدينة الإسكندرية فى عهد امبراطورية الإغريق والرومان، مع مقارنة هذه الحالة بحالتها الراهنة

٥٥- بنيت المدينة التى أسسها فى مصر، فاتح آسيا وأسماءها باسمه، مكان قرية كانت موجودة قبل ذلك بوقت طويل، وكانت تقع على شواطئ البحر المتوسط تجاه وبالقرب من جزيرة فاروس، وكان بهذه القرية التى تسمى راكوتيس^(١) معبد صغير لعبادة إيزيس وسيرابيس Serapis ، وكان يقطنها الصيادون والرعاة الذين كانوا يشغلون هذه النقطة من لسان ضيق، تحيط به مياه المتوسط أو بحر الإغريق من الشمال، ومياه بحيرة ماريا Maréa من الجنوب، وقد قام الفرس، ومن قبلهم فراعنة مصر، بتحسين هذه القرية، وكذلك جزيرة فاروس، حتى يكونوا فى مأمن من إغارات الإغريق.

(١) راكوتيس حسبما يذكر سترابون، الكتاب السابع عشر، وراخوتى حسب الكتابة القبطية.

وهكذا كان سكان هذه الضاحية والذين يطلق عليهم اسم أبناء راکوتيس، فى حالة تمكنهم من صد اعتداءات هؤلاء القراصنة، الذين كانوا يروعون سواحلهم. يقول سترابون فى هذا الخصوص: "وحيث كان ملوك مصر الأوائل يشعرون بالكفاية بما لديهم، فإنهم لم يستشعروا كبير حاجة إلى استيراد أشياء من الخارج؛ ومن جهة أخرى فقد أقام هؤلاء الملوك - حتى يرصدوا حركات البحارة (المغيرين) وبخاصة الإغريق منهم، أولئك الذين تدفعهم قحولة أراضيهم إلى الذهاب إلى مكان آخر للحصول على، أو لسلب مالا يجدونه عندهم - حامية مهمتها الدفاع عن سواحل هذه المدينة ضد الأجانب". ومع ذلك فلم تكن راکوتيس بالضرورة كبيرة فى الوقت الذى ظهر فيه الإسكندر، إذ إن هيرودت، الذى زار مصر عام ٤٦٠ ق م قبل ذلك بقرن، لم يشر إلى هذه القرية فى كتابه، فى الوقت الذى يذكر فيه مدن كانوب إلى الشمال الشرقى، وماريا وأبيس إلى الجنوب باعتبارها مدناً كبيرة.

ويرجع المؤلفون العرب تأسيس هذه القرية إلى عصر

مصريايم ابن حفيد نوح، ويرجعه آخرون إلى أمير اسمه شداد Chedad ، وهو سابق على مجيء الفاتح المقدوني بزمان طويل؛ وحيث كانت هذه المدينة مزودة بثلاثة أسوار حصينة، فلا بد أنها قد دمرت، وأعيد بناؤها في فترات مختلفة، على يد الآراميين، وأن شداد هذا لم يفعل سوى أن رممها، ثم على يد الفرس بقيادة بختنصر، وهو نفسه ملك الآشوريين الذي خرب ممفيس، والذي يسميه سفر الكتابة نابوخذنصر؛ ويقول المقرئى^(١): إنه فى عام ٢٣٥٦ بعد الطوفان، العام ١٦٨٤ قبل تحطيم معبد أورشليم، فى السنة ١١٠ شمسية بعد هذا الحادث، أنشأ الإسكندر بن قليب، وهو نفسه الذى هزم داريوس وسيطر على فارس، هذه المدينة (الأسكندرية) ومنحها اسمه، ونقل إليها مقر امبراطوريته الذى كان قبل ذلك فى ممفيس. ويتفق كل المؤرخين لحد كبير على هذا الحادث؛ فمن المعروف أن مصر كانت تنن منذ مائتى عام، تحت سيطرة

(١) يذكر المستشرق لانجليه Langlès ، الذى ترجم المقرئى، ذلك المؤلف العربى الشهير بجغرافيته التاريخية عن مصر، فى طبعة باريس ١٨٠١ عن رحلات نوردان Norden ، المجلد الثالث، ص ١٥٧، تفاصيل هامة، رجعنا إليها، وستقابلنا مقتطفات منها فى هذه الدراسة.

الفرس، عندما تقدم الإسكندر - بعد أن أطاح بالكبرياء
المستبد - نحو مصر التي استقبلته كمنقذ محرر، وفتحت
بيلوز (تل الفرما كما يسميها العرب، وبالوظة الآن) مفتاح
مصر، وممفيس التي كانت عاصمة لها، أبوابها للفتح. وبعد
أن قدم القرابين إلى العجل أبيس في مدينة ممفيس، ركب
الإسكندر النهر حتى كانوب (أبى قير)، والتف حول
ماريوتيس (مريوط) إلى الشمال، وتوقف عند راقوتيس التي
أعجبه موقعها، لكى يفيد من المميزات الطبيعية التي يقدمها
هذا الموقع، وقرر أن يؤسس هنا مدينة، وعهد بتنفيذ هذا
المشروع إلى دينوكراتوس Dinocrate ، المعمارى المقدونى
الشهير، فى نفس عام انتصاره دون شك، أى فى السنة ٤٢٢
من تأسيس روما، السنة ٣٣٢ ق.م. وقد حدث بعد هذا
الإجراءات، حسبما يذكر أريان Arrien ^(١) أن رحل الإسكندر،
وهو الذى كان يرغب فى إعلان نفسه ابنا لجوبيتر، إلى معبد
أمون ليستشير وحيه.

(١) أريان، الكتاب الثالث ، الفصل الثانى، انظر بخصوص أريان،
الترجمة الجديدة لمؤرخ الاسكندر هذا، والتي قام بها شوسار
Chaussard ، المجلد الأول، ص ٢٣٧.

وتبعاً لهذه الشهادات، فإنه لا ينبغي أن ينظر لفتح آسيا باعتبارها مؤسس الإسكندرية، وإنما باعتباره فقط قد قام بتوسيعها وتحسينها وتجميلها ليتخذ منها مقراً لامبراطوريته الجديدة. وحسبما يذكر ديودور وكينت كورس^(١) Quinte Curce فإن السور الذى خطط لها، والذى رسم فى جزء منه بالجير وفى جزء آخر بالدقيق، كان يضم كل المساحة الواقعة بين البحر وبحيرة ماريوتيس، وكان طول الجهتين

(١) ديودور، الكتاب ١٧، ص ٥٨٩؛ وكينت كورس، الكتاب الرابع، الفصل السابع، ولاتزال هذه العادة متبعة حتى اليوم فى مصر، فلم يأت مهندس معمارى ولا حتى مهندس عام كما هو الحال فى أوروبا، بتخطيط التصميم على الأرض بواسطة الجص أو بودرة الجير، وعندما تحدد الأسوار بهذه الطريقة، وبدون تصميمات وبدون رسوم أو مقاييسات تقديرية، تقام الجدران الرئيسية، وبعد ذلك يطلب المالك فى معظم الأحيان من المعلم هذا المكان أو ذاك، وهذه الحجرة أو تلك حسبما يتراعى له، وعلى الطبيعة، وينبغي أن ننسب إلى هذه العادة السيئة عدم التناسق فى المباني، وكذلك الأخطاء التى نلاحظها فى مساكن العامة وكذلك قصور الكبار. وفى الواقع فكل المبانى مقسمة إلى حجرتين أو حجرات ثلاث كبيرة، تحيط بها على الدوام حجرات صغيرة أرضيتها ليست على مستوى واحد، أما السلالم التى يبلغ ارتفاع درجاتها من ٢٠ إلى ٢٥ سم، فهى على الدوام ضيقة ومعتمة وغير مريحة.

اللتين تمتدان بطول البحر والبحيرة يبلغ ٣٠ غلوة، أما
الجهتان الصغيرتان الأخريان اللتان تعبران اللسان بعرضه
فكان طولهما يبلغ من ٧ إلى ٨ غلوات حسبما يذكر سترابون
و ١٠ حسبما يذكر آخرون، أما السور الذي يشبه سترابون
شكله بشكل معطف مقدوني^(١) فقد كان طول محيطه يبلغ
١٥,٠٠٠ خطوة، أى مايساوى حسبما يذكر دانفيل
d'Anville ١٢٠ غلوة، وإن كان كينت كورس لا يقدره بأكثر
من ٨٠ غلوة، وفى النهاية فإن المؤرخ يوسيفوس Joseph
(فلافيوس جوزيفوس) يقدر طول المدينة بـ ٣٠ غلوة وعرضه
بـ ١٠ غلوات^(٢). ونحن فى هذا كله نميل إلى ترجيح معلوما
سترابون، حيث إن هذا المؤلف، فضلا عما يشتهر به من
صدق، قد خصص دراسة مفصلة لوصف مدينة الإسكندرية
فى كتابه الجغرافى الذى تناول فيه مصر^(٣).

(١) Pline, Hist, nat. liv V, chap X, et Plutarque, vie d'Alexandre.

(٢) Josephus, De bello Jud. liv, II ch XVI.

(٣) سنكشف منذ الآن عن الإشارة إلى الكتاب السابع لسترابون الذى
صحبه اليوس جالوس Elius Jalus فى حملته على مصر، والذى نقل
=

٥٦- يقول سترابون إن الأسكندرية كانت تفرقها من الشمال مياه البحر، ومياه البحيرة من الجنوب، ولم يكن من المستطاع الوصول إليها براً إلا عن طريق لسانين ضيقين يسهل الدفاع عنهما؛ وكانت تغطيها جزيرة فاروس التي كانت تشكل بالنسبة لها ميناءً طبيعياً فى منأى عن رياح الشمال والشمال الغربى، وحتى تتم الإفادة من هذه الميزة الكبيرة فقد تم توصيل اليابسة بالجزيرة عن طريق جسر ضيق يبلغ طوله ٧ غلوات ، يسمى كما يذكر هذا الجغرافى هبتاستاديوم Heptastadium ، ويقدر هيرتيوس Hirtius طوله بـ ٩٠٠ خطوة^(١) . وكان هذا الجسر يتكئ من جهة المدينة على ميدان

= إلينا فى هذا الكتاب، الذى خصصه لتاريخ هذه المنطقة، تفاصيل خاصة عن مدينة الأسكندرية، ونحن فى الواقع، مدينون لهذا العالم الجغرافى بالمعلومات التى لدينا عن تاريخ هذه المدينة فى الأزمنة القديمة.

(١) يقدر هيرتيوس طول هذا الطريق ٩٠٠ خطوة أى ٩/١٠ من الميل الرومانى، أى ما يبلغ ٦٨١ قامة حيث يقدر الميل بـ ٧٥٦ قامة، ومن جهة أخرى فإن الهبتاستاد تساوى حسب الغلوة اليونانية ٦٦٥ قامة وهو ما يبلغ حوالى نصف غلوة (ستاد) بالإشارة إلى الطول الذى يعنيه سترابون. أنظر:

Hirtius De bello Civili Chap CII.

كبير، يقع عند سفح جدران يفصل عنها بواسطة قنطرة، يحميها من الأمام أحد الحصون، وعند طرفها الشمالى يغطى حصن ثان قنطرة ثانية تتصل بجزيرة فاروس. وتتكون هاتان القنطرتان من أعمدة عالية، مثبتة بالبحر، وترتفع إلى حد ما فوق سطح المياه، لتشكل ممراً حراً للسفن. ويقسم هذا الجسر الذى يتجه من اليابسة إلى الجزء الغربى من الجزيرة، الميناء الطبيعى إلى قسمين: يحمل القسم الغربى منه فى عهد الرومان اسم Eunostus Portus ، بينما كان يحمل القسم الآخر، الواقع إلى الشرق اسم Magnus Portus .

٥٧- وعند الدخول إلى الميناء الكبير، يجد المرء على يمينه برج الفئار، وقد أنشأه Sostrate de Cnide فى عهد بطليموس فيليب فى عام ٢٨٢ ق م. وكان هذا البرج، الذى شيد على صخرة تلاطمها من كل مكان مياه البحر، يرتفع لعدة طوابق، يحيط بكل طابق منها دهليز يدعمه صف من الأعمدة، ويحمل البرج هذا النقش "من سوستراتاتوس عن اكنيدوس بن ديكسيغان إلى الآلهة الراعية للملاحة". وفى أثناء

الليل يضىء هذا البرج، الذى يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدم، شعلتين يراهما المسافر على بعد ٣٠٠ غلوة من عرض البحر، ذلك أنه يصبح من الضرورى، حيث إن الساحل منخفض وخطر بسبب كتله الرملية وشعابه الصخرية، وجود إشارة عالية ترى من أعالي البحار لترشد السفن بأمان إلى الميناء^(١).

وهناك أثناء النهار، مرآة معدنية تلتقط صور السفن قبل أن تظهر فى الأفق. وكانت هذه السفن تضطر لكى تدخل الميناء أن تقترب بشدة من الفنار، حيث لم تكن الصخور ولا هاب الصخرية الواقعة إلى اليسار لتسمح لها بالاقتراب

(١) يلمح المرء على هذه المسافة ، التى تبلغ ٣٠٠ غلوة يونانية تساوى ٢٨,٥٠٠ قامة أو عشرة فراسخ بحرية، أنوار الفنار، ولم تعد هذه المسافة بذات بال بعد إقامة هذا البرج، ذلك أننا نستطيع بسهولة ونحن على شواطئ فرنسا أن نلمح أثناء الليل أنوار فنارى ميناء دوفر Douvres على السواحل الانجليزية، وتبلغ المسافة التى تفصل هذين الميناءين ٢١.٣٦٩ قامة تساوى سبعة فراسخ بحرية ونصف الفرسخ، تبعاً لحسابات السيدين بيكار Picard ولاهير le Hire ، يذكر أبو الفداء وبعض المؤرخين العرب، أن المرآة كانت لا تزال وجودة فى برج الفنار فى العام ٩٢ من الهجرة (٧١٢ م) ، وهى الفترة التى انتزعت منه.

من هذه الناحية، وهو نفس ما يحدث اليوم. وكان هذا البرج يستخدم كذلك بمثابة حصن.

٥٨- وكان الدفاع عن شمال مدخل الميناء، يتم عن طريق قصر حصين، بنى فوق شناخ (أنف الجبل الخارج منه والداخل فى البحر) يتوغل كثيراً داخل المياه، وكان هذا القصر يحمل اسم لوخيّاس Lochias ، ولكى يضيق المدخل أكثر من ذلك كثيراً فقد أقيم أمام هذا الحصن رصيف حاجز، ينهض فوق صخور فى مستوى سطح الماء يطلق عليه اسم arcolôchias أى رأس لوخيّاس^(٩) وقد أشار إليه يوسيفوس باسم الساق التى صنعتها يد الإنسان^(١٠) . ويرى المسافر عندما يواصل طريقه على اليسار، حى القصور الذى يحيط به البحر. وعند بداية حاجز لوخيّاس، كان ثمة ميناء صغير مغلق خصص لسفن الملوك أى للبحرية الملكية؛ ويحدد لها سترابون مكاناً آخر يقع تجاه جزيرة صغيرة تسمى Anthirrhodos ، وكان لها هى الأخرى ميناء صغير به

(*) السلسلة حالياً . (المترجم).

Josephe, De bello Judaico lib V . (١)

قصر؛ وبمواصلة الطريق، يقابل المرء المسرح الذى كان يتصل بالقصر عن طريق ممر يطلق عليه بوليب^(١) Polybe اسم Syrinx ، ويفصل هذا الممر ميدان الألعاب الرياضية عن المضمار (سباق الخيل) ؛ وبعد ذلك يرى البوزيديوم Posidium وبه معبد مخصص لعبادة نبتون Neptune^(*) ، وهو مقام فوق لسان من الأرض يتجه إلى داخل الميناء، وقد أمر مارك أنطونيوس بأن ينشأ فيه حاجز آخر أكثر توغلا فى البحر، والذى على قمته شيد القصر الذى أسماه تيمونيوم Timonium ؛ وبعد ذلك يأتى الكوزاريوم أو القيصرين Coesarium (معبد قيصر، وهى الرمل حالياً) والسيبستيوم Sebasteum ثم قصر الملوك وقد أقيمت من قبله مسلتان وأخيراً يأتى الأمبوريوم Emporium والأبوستاز Les Apostases ، أما بقية محيط هذا الميناء، التى كانت تشغلها المنشآت التابعة لترسانات البحرية، فكانت تمتد حتى الهبتاستاديوم.

Polybe, Excerpt. lib. V. (١)

(*) إله البحار.

٥٩- وفيما وراء الهبتاستاديوم يجد المرء الميناء الثانى الذى كان يحمل اسم أونوستوس Eunostus ،وقد كان الإقبال عليه أقل بكثير من الإقبال على الميناء الأول على الرغم من أنه أوسع منه لغير ما حد؛ وكان يضم ميناء آخر يسمى كيبيتوس Kiptos أى القوس وكان مزوداً بكل ما يتناسب مع الخدمة البحرية، كما كان يستقبل مياه الترعة التى كانت تعبر المدينة لتتصل ببحيرة ماريوتيس؛ وفيما بعد هذه الترعة بقليل كانت تنتهى المدينة لتنهض تحت أسوارها مباشرة قرية نكروبوليس Necropolis مدينة الموتى أو الجبانة.

ويتمتع ميناء أونوستوس^(١) من الداخل بهدوء تام، ك يسمح عمقه لأضخم السفن بالاقتراب من الرصيف، لذ الشعاب الصخرية التى تتكسر عليها الأمواج كانت تمذ

(١) تتناسب تسمية Eunostus Portus ، أى «ميناء العود الحميد» على الدوام مع ميناء الأسكندرية القديم (الميناء الغربى)، الذى كان الدخول إليه بالغ اليسر، بسبب رياح الشمال، والغرب، والشمال الغربى، التى تسود فى غالب الأحيان، والذى يكون الخروج منه، لنفس السبب، بالغ المشقة لحد كبير، حيث تكون هذه الرياح عكسية بشكل مباشر.

الدخول إليه من جهة العرض.

٦٠- وقد بنيت الأسكندرية فى عهد بطليموس بأنقاض هليوبوليس وممفيس وطيبة، كما زينت بأعمدة هذه المدن ومسلاتها التى نقلت إليها بتكاليف باهظة، ويخترق الأسكندرية من الداخل شوارع مخططة بطريقة تسمح باستقبال نسيم رياح الصيف القوية، أى أن الشوارع تتجه من الشمال إلى الجنوب، ومن شمال الشمال الغربى إلى جنوب الجنوب الشرقى، وتستطيع العربات أن تمر فيها بحرية، كما يخترق المدينة بطولها وعرضها شارعان كبيران، يبلغ عرض الواحد منهما ما يقرب من مائة قدم، يتقاطعان بزوايا مستقيمة عند منتصفها، ويبلغ طول أكبرهما حسبما يذكر سترابون ٣٠ غلوة ابتداء من منشئه عند بداية كانوب، حتى نهايته من جهة الغرب عند بوابة نكروبوليس (وهو شارع طريق الحرية حالياً). ويقدم يوسيفوس نفس المقاييس وإن كان ديودور يقدره بـ ٤٠ غلوة، ولكنه يضيف إليه دون شك امتداده إلى الضاحية الشرقية. أما الشارع الكبير الآخر، الذى يعبر المدينة

بعرضها، فقد كان يبلغ امتداده ٧-٨ غلوات، بادئاً من موانئ النهر فى ماريوتيس، لينتهى عند مبانى الترسانة البحرية فى الميناء الكبير (شارع النبى دانيال حالياً).

وعند نقطة تقاطع الشارعين الكبيرين، أى حوالى وسط المدينة، نلاحظ ميداناً فسيحاً يقسمها إلى أربعة أقسام أو أحياء؛ لكن فيلون Philon ، معاصر سترابون^(١) ، يذكر أن الأسكندرية كانت فى عهده تنقسم إلى خمسة أقسام تحمل الحروف الخمسة الأولى من الحروف الهجائية الإغريقية. وقد أطلق اليهود اسمهم على اثنين من هذه الأحياء، حيث كانت توجد مساكنهم الخاصة بهم. ويقول يوسفوس^(٢) إن اليهود كانوا يسكنون جزءاً من حى القصور على شواطئ البحر؛ وقد أطلقت أسماء أخرى على هذه الأحياء، التى كان أقدمها، وأكثرها أهمية، هو حى القصور أو حى بروخيون Bruchion

(١) فيلون، كاتب يهودى، كان يعيش فى الأسكندرية من عام ٣٠ - ٤٠ م انظر De pells Alex in Flaccum, p. 753.
 (٢) يوسفوس، كاتب يهودى، كان يعيش فى الأسكندرية من عام ٦٠ - ٧٥ م.

وحى راكوتيس Rachotis أو سيرابيوم Serapeum .

٦١- وكان حى بروكيون يشمل كل الخلاء الواقع بين الميناء والساحل إلى الشرق، ابتداء من لوخياس Lochias (السلسلة) حتى بوابة كانوب؛ وكان يضم القصور والميناعين؛ الميناء الملكية، وميناء الجزيرة الصغيرة انتروديوس Anthirrhodos ، والمسرح والدهليز الخاص به، والبوزيديوم Posidium ، والتيمونيوم Timonium والكوزاريوم أو القيصرون Coesarium ، وميدان الألعاب الرياضية والمصارعة والمضمار (مكان ترويض وسباق الخيل) أو مياندروز Meandros والمتحف والجمنان، وهو عبارة عن مبنى واسع تزيينه الأروقة والأعمدة لمساحة يزيد طولها على غلوة وهو مخصص لدراسة العلوم، وترتبط هذه المنشأة بقصر الملوك، وتمتد حتى بوابة كانوب، وكانت ترى به المكتبة الشهيرة، التى كان مؤسسها إما بطليموس سوتر (الأول) Ptolemé Soter وإما بطليموس فيلادلفيوس

P.Philadelphie^(١) وكانت ترى هناك كذلك معابد أخرى وغباب مقدسة. هنا صد يوليوس قيصر قوات البطالمة وأهل الاسكندرية، ومنذ ذلك الوقت حصن هذا الحى بسور خاص عزله عن بقية المدينة، وجعل منه شكلا من أشكال القلاع، وقد صمد لهجوم آخر فى عهد الإمبراطور كلوديوس الثانى Claude II فى عام ٢٧٠ م، ثم تحطم الحى تماماً على وجه التقريب بعد بضع سنوات فى عهد أورليان فى عام ٢٧٥. ويذكر سان جيروم S.Jerôme أن الحى كان فى عصره، أى حوالى ٤٢٠ م، منعزلا عن المدينة وأنه كان يستخدم كماوى لبعض الزاهدين المنعزلين؛ وبعد ذلك بقرن واحد، فى عصر سان إبيفان S.Epiphane ، أصبح الحى خراباً تماماً.

(١) تكونت المكتبة على يد بطليموس فيلادلفيوس، وتوسعت على يد خلفائه وكانت تضم ٤٠٠ ألف مجلد، وقد أحرقت جزئياً أثناء حصار الاسكندرية، على يد يوليوس قيصر فى العام ٧٠٦ من تأسيس روما، العام ٣٧ ق. م، حيث وصلت نيران السفن الراسية فى الميناء إلى حى الملوك، وأحرقت جزءاً كبيراً منه، وكذلك من المكتبة. ولا نفصل هنا المتحف عن الجمناز الذى لم ينشأ منه إلا مبنى واحد، على الرغم من أن سترابون، فيما يبدو، يفصله عنه ليجعل منه مبنى قائماً بذاته.

٦٢- وكان حي راكوتيس يشتمل على معبد سيرابيس Sérapis ، الذى أعيد بناؤه على يد بطليموس ابن لاجوس Lagus ، مكان معبد صغير كان مخصصاً لسيرابيس وإيزيس Isis معاً؛ ويقول سوزومين Sozomene إن هذا المعبد كان يقع على ربوة صغيرة إلى الشرق من الترعة؛ ويقول روفان^(١) Ruffin الذى زاره قبل بضع سنوات

(١) يقول روفان: إن تيوفيل، وهو فى سبيله للقضاء على الوثنية نهائياً فى كل مصر، قد حصل فى عام ٣٩٠ م من الامبراطور تيودوسيوس Théodosius على مرسوم يسمح له بأن يدمر كل المعابد المصرية، وتبعاً لأمر من الامبراطور قسطنطين Constantine ، قام بطيريك الأسكندرية بانتزاع تمثال سيرابيس عام ٣٢٨ م وكذلك المقياس الذى يستخدم فى ملاحظة مياه النيل، وقد أحرق الوثن، أما المقياس أو ال Separi فقد نقل إلى كنيسة مسيحية، فى ذلك الوقت، من كنائس المدينة هى كنيسة سان أثناز التى بناها جريجوار الأريوسى Gaégoire l'Arien ، وعندما أراد الامبراطور جوليان Julien أن يعيد بادة الوثان، فقد أمر أن ينقل إلى السيرابيوم، المقياس الذى كانت راسطته تحدد درجات فيضان النيل، وقد بقى المقياس هناك حتى سنة ٣٩٠ م، وهو الوقت الذى حطم فيه تيوفيل نهائياً هذا المعبد، حسب أوامر الامبراطور تيودوسيوس.

ويطلق المصريون اسم سيرابيس Sérapis ، أو بالأحرى شيرابى Cherapi على المنشآت المخصصة للملاحظة السنوية لفيضانات النيل، صانعة الخصوبة والوفرة اللتين كان المصريون يقدسونهما تحت اسم =

من قيام تيوفيل Thèophile بطيريك الأسكندرية بتدميره نهائياً فى عام ٣٩٠ م ، إن هذا المعبد قد بنى فوق مرتفع ليس من فعل الطبيعة وإنما من صنع الإنسان، وهذا المبنى الواسع، كما يضيف روفان، كانت تدعمه شرفات مقدسة يصعد إليها عن طريق سلم تبلغ درجاته مايزيد على المائة، وكان داخله، الذى تزيينه الأعمدة والأروقة، يضم حجراً مختلفة، مخصصة للأسرار المقدسة وكذلك لمساكن الكم الموكلين بهذه الأسرار. وكان يوجد بهذا المعبد مقياس للنم مخصص لسيرابيس وكان يحمل اسمه ، وقد أمر قسطنطين بإقامته فى عام ٣٢٨ م ، لكى ينقل بعد ذلك إلى

= أبيس.

ويقول جابلونسكى Japlonski ، إن اسم سيرابيس هذا يتكون من كلمتين مصريتين، احتفظت بهما اللغة القبطية هما: سير Ser ، أو شير Cher ، أو سار Sar ومعناها كلها عمود؛ وأبيس Apis ومعناها مقياس.

وهكذا، فقبل إنشاء الأسكندرية، كانت لمفيس سيرابيوم أى معبد مخصص لأبيس، وكان ينهض فوق ريوقة صغيرة تسمى سينوبى Synopi (أى المكان الذى يتم فيه القياس)، وكان المعبد مخصصاً لدفن العجل أبيس (مأخوذ من مذكرات المسيو لانجليه. Langlés (Voyage de Norden, Tome III p. 236 et 241)

كنيسة الأسكندرية، ولا تزال توجد بها حتى اليوم المكتبة الثانية التي أثرت بما تبقى من مكتبة المتحف^(١) ، التي

(١) أقيمت المكتبة الثانية بعد وقت قصير من حريق مكتبة المتحف في عهد يوليوس قيصر، وكانت تضم ٥٠٠.٠٠٠ مجلد عندما تحولت إلى رماد، تنفيذاً لأوامر عمرو (بن العاص) في العام ٢٢ من الهجرة (٦٤٢م)، فقد كتب الخليفة عمر إلى قائده الذي استولى لتوه على "دريّة (مأمعناه) « إذا كانت هذه الكتب لاتضم إلا ما جاء به فاحرقها إذ لا حاجة لنا بها، وإذا كانت تضم شيئاً مخالفاً رها لخطورة ما تحويه»، ويقول التاريخ (*)، إنه تبعاً لهذا الأمر لا يتصور صدوره عن رجل متحضر، فقد بعثت كل كتب هذه تبة، ووزعت على حمامات المدينة لاستخدامها في التدفئة، وظلت تشتعل لمدة ستة شهور، وكان قد بنى منذ وقت طويل، في مكان المعبد، كنيسة تحمل اسم الامبراطور أركاديوس Arcadius والتي يظن بعض المؤرخين دون سند، أنها اليوم هي الجامع المسمى جامع الألف عمود الذي يقول موروث البلاد إنه ترجمة لكلمة السبعين.

وجود هذه المكتبة أمر يجادل فيه، عن سوء نية، بعض المؤرخين المحدثين، فهذه قد تكونت من بقايا مكتبة المتحف، وهي الأقدم، وقد بينا أن جي بروخيون الذي كانت تقع فيه المكتبة (الأقدم) كان قد تهدم ماماً منذ بداية القرن الخامس ، وقبل نهاية القرن الرابع بقليل.

وقد قدم المسيو لانجليه Langlès في النبذ التي ساقها، والتي استخلصها من المؤرخين، المعلومات التي من شأنها أن تثبت الوقائع (التي انتهينا إليها).

=

انظر : Voyage de Norden

أحرقها من قبل يوليوس قيصر Jules Cèsar^(١).

= (*) يحق لنا أن نستشهد هنا بما يسوقه حول هذا الموضوع مؤرخ فرنسي معاصر هو جاستون فييت في كتابه :

Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues tome II, par Gaston Wiet, l'Egypte musulmane, de la Conquête arabe à la Conquête ottomane-le Caire, 1932 p. 111-112.

حيث يستبعد هذا المؤرخ تماماً، تلك الرواية التي يوردها عبد اللطيف البغدادي عن أمر الخليفة عمر بحرق مكتبة الاسكندرية، وهي الرواية التي بنى عليها كل المؤلفين في الغرب موقفهم في هذا الخصوص.

ويرى جاستون فييت أنه على الرغم من أن هذا الحادث ممكن الوقوع أثناء الحروب القديمة، ويستشهد على ذلك بحرق المغول لمكتبة بغداد وحرق الفرنجة لمكتبة تونس، فإن الرواية في حد ذاتها غير صحيحة، ويرى أن بالإمكان إهمالها كلية، ويستند في ذلك على ما يلي :

١- أن هذه الرواية لم ترد إلا عند عبد اللطيف البغدادي، وبعد مرور ٢٠٠ (مائتي) سنة على الحادث المزعوم.

٢- أنها لم ترد عند مؤرخين عرب ثقات مثل الكندي وابن عبد الحكم والبلاذري والطبري والمسعودي.

وقد يكون هذا كافياً لدحض ذلك الاتهام الذي يحاول المؤلف أن يلصقه بالعرب والمسلمين (المترجم).

(١) بنى فوق معبد سيرابيس، كنيسة كانت تحمل اسم أركاديوس، بتضرع من يوحنا الممدان، وقد افتتحت في احتفال مهيب.

(Histoire du Bas - Empire, tome per, liv XXIV).

٦٣- أما السوما Sôma ^(٤) التى كانت تتبع حى القصور
خسبما يذكر سترابون، والتى كانت تضم قبر الإسكندر،
فكانت تقع حسبما يقول تاتيوس Tatiوس عند نحو مركز
المدينة، حيث كانت تعد جزءاً من حى يحمل اسمها.

٦٤- وفى أحياء أخرى. من المدينة، كان المرء يجد مبانى
عامة مختلفة لم تتحدد مواقعها بدقة، مثال ذلك مبنى
الستاديوم Stadium والفوروم Forum حيث كان يتم
التقاضى. أما البانيوم Panium ^(٥) الذى يقع على مرتفع
ينتهى بقمة مدبية، فيبدو أنه صخرة طبيعية على الرغم من أنه
من صنع الإنسان، ويتم الصعود إليه من الداخل بواسطة سلم
دائرى لولبى، ومن قمة هذا المرتفع يشرف المرء على كل
المدينة؛ وأخيراً نرى المدرج أو السيرك، وكذلك بعض معابد

(*) السوما أو السيميا ومعناها الجبانة الملكية وتقع كما يذكر محمود ..
الفلكى فى كتابه عن الأسكندرية القديمة عند تقاطع طريق الحرية مع
شارع النبى دانيال. (المترجم).
(**) البانيوم، تل صناعى أقيم تعظيماً للاله بان بحيث تشرف قمته
على المدينة كلها، وتحيط به حديقة جميلة. ويظن بأن بقايا هذا التل هى
ما نعرفه اليوم باسم كوم الدكة. (المترجم).

تهدمت كانت مبنية عند نيكوبوليس Nicopolis .

٦٥- أما القناة التي تربط بحيرة ماريا بميناء أونوستوس Eunoste عن طريق الكيبوتوس Kibôtos (الميناء الصغير الداخلى) ، فتعبر الطرف الغربى من المدينة ، وكانت القناة تسمى ترعة ماريا ، وفيما بعد ترعة شديا Schedia ، وكانت هذه الترعة المتفرعة من الفرع الكانوبى عند قرية شديا (كوم الجيزة حاليا) ، تبعد عن الأسكندرية من جهة الشرق، بـ ٤ شونيات (١٢,٠٩٦ قامة أى ٢٣٥٧٥,٥٤ م) وكانت تنقل كما هو شأنها اليوم، المياه العذبة إلى المدينة. يقول سترابون "عندما يغادر المرء الأسكندرية عن طريق بوابة كانوب، يجد عن يمينه ترعة تصل إلى البحيرة وتؤدى إلى مدينة كانوب، ويستطيع المرء أن يبحر عن طريق البحيرة نحو النهر ثم يتوجه إلى كانوب وإلى شديا، وقبل أن يمضى إلى إليوزين Eleusine^(١) يجد على يمينه ترعة تؤدى إلى شديا، تبعد عن الأسكندرية بـ ٤ شونيات^(١)".

(*) النزمة حاليا.

(١) انظر دراسة عن القناة التي تربط بين البحرين، القسم الثانى، الفصل الأول، الدولة الحديثة، المجلد الأول، ص ١٢٤ - ١٣٠.

وكانت مياه النهر توزع، بواسطة مشاريع هندسية تحت أرضية، على الآبار والخزانات المحفورة تحت المدينة؛ ويقول هيرتيوس Hirtius الذى أشرنا إليه من قبل، وهو يتحدث عن هذه الخزانات والآبار: "يكاد يكون محفوراً تحت الأسكندرية بأكملها خزانات سفلية، تتلقى مياه النهر، وتأتى إليها هذه المياه عن طريق مسارب ثم توزع على خزانات بيوت الخاصة حيث تركد وتنقى شيئاً فشيئاً؛ ولا تشرب المدينة مياهها أخرى، إذ لا توجد بها مطلقاً أية عيون طبيعية. ويضطر العامة لاستخدام المياه التى ينزحونها من مجرى النهر أو الترعة، ولكن فحيث إن هذه المياه عكرة للغاية، فإنها تسبب أمراضاً مختلفة". ويطلق أوزون Ausone على الأسكندرية، وهو يتحدث عن العدد الهائل بها من الخزانات أو الصهاريج المخصصة لحفظ المياه اللازمة لاستهلاك سكان هذه المدينة، «بيت النهر».

٦٦- ويقول ديودور^(١) إن عدد سكان هذه المدينة يتناسب

(١) ديودور الصقلى، الكتاب السابع عشر.

مع اتساعها إذ كان قد بلغ فى عهد أغسطس ما يزيد على ٣٠٠,٠٠٠ مواطن حر، الأمر الذى يفترض وجود شعب يبلغ تعدادة حوالى ضعف هذا العدد، إذا ما أضفنا إلى هؤلاء عدد العبيد، لكن هذا الرقم يبدو لنا مبالغاً فيه، ومع ذلك فإن كليتوفون Clitophone يقول أثناء حديثه عن شعب الأسكندرية، إنه "عندما يتأمل هذه الألوف من سكانها، فإنه لا يستطيع أن يتصور أن من الممكن أن توجد مدينة كبيرة لحد تستطيع معه أن تضم هذا العدد الهائل، كما أنه - من جهة أخرى - لا يستطيع أن يتصور وجود عدد ضخم من الناس لحد يستطيعون معه أن يشغلوا امتداد هذه المدينة الواسعة".

٦٧- كانت الأسكندرية وطن كل من: أوريجين Origène، إقليدس Euclide، إبيان Appien، هيروديان Herodien، فيلون Philon، إلخ، وإلى مدارسها الأكاديمية الضليعة جاء مانيتون Manethon، وإيراتوستين Eratosthene الذى كان أول أمين لمكتبة المتحف التى أنشأها بطليموس إيفرجيتوس، وكذلك

جاء العالم الجغرافى بطليموس بالإضافة إلى آخرين.
جاء هؤلاء جميعاً لينهلوا من ~~الكتاب~~ التي نقلوها إلينا فى
كتاباتهم، ومن ناحية أخرى، فقد وضع أتباع كل من
كليمان Clément ، وجيروم Jêrome وجريجور،
وأغسطس، مؤلفاتهم بالأسكندرية.

٦٨- كانت جزيرة فاروس، كما سبق القول مأهولة قبل
مجيء الاسكندر بوقت طويل، وقد حصنها البطلمة قبل
يوليوس قيصر كما نعرف ذلك من تاريخ حربه فى الأسكندرية
حيث لقى الكثير من المصاعب لكى يستولى عليها، وقد كان
لقرية فاروس، شأنها فى ذلك شأن المدينة، أبراج عالية تربط
ما بينها جدران تقفل القرية بسور منيع بعض الشيء، وكان
يقطن هذه القرية بحارة يمارسون القرصنة، وكانت مياه النيل
أتى إلى كل مكان من هذه المدينة عن طريق مشروع هندسى
بنى بطول الهبتاستاد، وقد تحطم هذا المجرى، وكذلك قناطر
هبتاستاد، بالإضافة إلى هذه القرية الرائعة، أثناء حصار
الأسكندرية على يد يوليوس قيصر.



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

٦٩- وعند الخروج من الأسكندرية، عن طريق بوابة كانوب، يجد المرء على يساره ضاحية اليوزين Eleusine (النزهة) والتي يشطرها من طولها شارع كانوب الكبير والتي تحاذي البحيرة والبحر، والتي خططت شوارعها على غرار شوارع الأسكندرية، ويقابل المرء بعد هذه الضاحية مجرى هندسيا يسير بطول الساحل ويتجه إلى كانوب، وفيما بعد اليوزين، كان ثمة سيرك أو هيبودروم Hippodrome ينتهى عند نيكوبوليس.

٧٠- وتقع مدينة نيكوبوليس (ومعناها النصر) على شاطئ البحر، وتبعد عن الأسكندرية بـ ٣٠ غلوة حسبما يذكر سترابون، وبـ ٢٠ غلوة حسبما يذكر يوسيفوس، وقد سميت كذلك نسبة إلى الانتصار الذي أحرزه أوكتافيوس أغسطس على مارك أنطونيوس، وكانت تقام هناك احتفالات بهذه المناسبة، مرة كل خمس سنوات.

٧١- أما كانوب (أبوقير)، تلك المدينة التي اشتهرت بمعبد سيرابيس المقام فيها، وبورعها وفجورها، فكانت تقع على بعد ١٢٠ غلوة من الأسكندرية، وكانت تقوم على ضفاف

الترعة التى تؤدى إلى فنادق صغيرة، كان يطرقها على الدوام ألوف الرجال والنساء، الذين كانوا يتوجهون كل عام إلى هذه المدينة، للاحتفال بالأعياد التى يسودها المجون الجامع الذى تتميز به الأعياد الباخوسية عادة.

٧٢- وإلى ما وراء كانوب، كانت تقوم هيراكليوم Heracleum التى تقع عند رأس خليج أبى قير، والتى أطلق عليها - مرة أخرى- اسم معبدها القديم الذى كان مخصصاً لهيرقل.

٧٣- أما فتحة كانوب التى كانت تلى مباشرة هذا الموقع الأخير، مشكلة بذلك النقطة الشمالية للقاعدة الغربية للدلتا، فكانت تقع حسبما يذكر بلين Pline على بعد يساوى ٩٠٧٢ قامة أى ٦٦ ١٧٦٨١ م إلى الشرق من الأسكندرية.

١٠٠

٧٤- أما قرية نكروبوليس، أى مدينة الموتى، حيث كان هذا المكان مخصصاً كلية لدفن موتى الأسكندرية، فكانت تبدأ من نفس جدران السور، وتمتد إلى الجنوب الغربى من البحر

والبحيرة^(*).. ولقد كانت قرية بمعنى الكلمة، تحتوى على كثير من البيوت المزدانة بالحدائق، توجد تحتها أماكن سفلية نسميها مقابر.

٧٥- وأخيراً، فقد كان يوجد بعد هذه "القرية" قصر الشرسونيز La Chersonèse ، المبنى على قمة رأس يقع على بعد ٧٠ غلوة من الأسكندرية، وقد حصن هذا القصر، وكانت له حامية، وهو نفس المكان الذى نطلق عليه اليوم اسم الشيخ (العجمى) ، وهو الذى يقفل خليج الأسكندرية من جهة الجنوب الغربى.

والآن ، بعد أن قدمنا كل هذه المعلومات التى حصلنا عليها عن الأسكندرية القديمة، والتى كانت ضواحيها تغص بمساكن جديدة وفخمة، والتى تغطيها اليوم الرمال وكل قحولة الصحراوات الليبية، فإننا نمضى إلى الجزء الأخير من الدراسة والذى يقدم مقارنة مدعومة - حيث هو يتفرع عن القسمين السابقين - عن حالتى هذه المدينة العريقة.

(*) كانت هذه الجبانة الغربية للأسكندرية تشغل المناطق التى تسمى حالياً، الانفوشى، كوم الشقافة، الوردان. (المترجم).

القسم الثالث

فحص موثق عن حالة مدينة الإسكندرية بشكائها القديم مع مقارنتها بحالتها فى شكلها الراهن

٧٦- بعد أن قدمنا فى القسمين السابقين حالة مدينة الإسكندرية فى عصور حياتها المختلفة، سوف نشير - حسب المعلومات التى حصلنا عليها أثناء إنشاء الخريطة الطبوغرافية بهذه الدراسة - إلى وضع أكثر الأماكن والمباني فى هذه المدينة شهرة، وسوف يقودنا ذلك إلى فحص موثق، تدعمه بعض الأسئلة التاريخية والجغرافية، التى من شأنها أن توضح مدى صحة رأى حول الانتقادات الموجهة حول قيمة المقاييس الطولية التى قدمها المؤرخون القدماء، والتى تدور حول اتساع هذه المدينة.

٧٧- كانت تنقص الأبحاث العلمية، كلاً من بونامى Bo-namy ودانفيل d'Anville^(١) وهما اللذان قد عالجا كلاهما

١٩ (١) قدم المسير بونامى Bonamy - عضو أكاديمية النقوش والفنون الجميلة - ثلاث دراسات عن مدينة الإسكندرية، نشرت فى عام ١٧٣١ =

هذه المسألة، وقد فحصنا أبحاثهما عند وضع تصميم دقيق

= فى مجلد دراسات هذه الأكاديمية المجلد التاسع، ص ٤١٦. وقد رجعنا إلى النبذ الدقيقة لهذا الأكاديمي، والتي ذكرنا بعضها فى هوامش هذه الدراسة.

وفى حوزتنا بالإضافة إلى ذلك، دراسات عن مصر، ألفها دانفيل، وقد ذكرنا مؤلفه هذا - الذى استخدم كدليل للجيش الفرنسى - كمصدر له احترامه فى هذه الدراسة، وإن كنت أعتقد أن بالإمكان على الأقل، استبعاد بعض آرائه. ويمتدح دانفيل أبحاث بونامى، لكنه يضيف بأن ذلك لا يعنى أنه يستطيع أن يمتدح بالمثل خريطة الأسكندرية التى ألحقها هذا الأكاديمي - بونامى - بدراساته، إذ يقول بونامى إنه قد حصل على هذه الخريطة من مكاتب البحارة؛ ولذلك فلا بد أن تكون هذه الخريطة غير كاملة، ولا يمكن القياس عليها بالمقارنة بتلك الخريطة التى قدمها دانفيل على اعتبار أنها الأفضل، والتي ضمنها هذا الجغرافى فى دراساته المطبوعة فى عام ١٧٦٦.

وقد قدم نوردان Norden، الذى سافر إلى مصر فى عام ١٧٣٩، خريطة أقل خطأ. ويقول هذا الرحالة: إن هذه الخريطة قد تم إنجازها على يد فرنسى يأسف لعدم معرفته باسمه.

وفى الواقع، فقد كان إنجازاً كبيراً فى ذلك الوقت، أن يستطيع رحالة بوسائله البسيطة أن يقدم تخطيطاً متصوراً لمدينة مصرية، بل ومدينة شرقية على الإطلاق.

وفى عام ١٨٠٢، أورد المسيوشوسار Chaussard فى كتابه تاريخ الحملات على مدينة الأسكندرية Histoire des expéditions d'Alex الذى ترجمه عن أربان المؤرخ الإغريقى فى القرن الثانى - أورد وصفاً موجزاً لحالات ثلاث متتابعة لمدينة الأسكندرية، ويتطابق ما يقوله هذا المؤلف عن المدينة تماماً مع الرأى الذى قدمه دانفيل فى دراساته عن =

لخريطة الأسكندرية، ووجدنا أنه كانت تنقصهما على وجه الخصوص معرفة الأماكن، وهى المعرفة التى توفرت لنا، حتى يستطيعا أن يحددا بدقة الحالة القديمة للمدينة؛ وقد بين دانفيل، وهو المشهود له بالنظر الثاقب فى بحوثه الجغرافية، أن الأسكندرية كانت، بما لا يدع مجالاً للشك، تشغل مساحة أكبر بكثير من تلك المساحة التى يحددها السور الحالى، الذى يقول عنه إنه لابد أن يكون قد بنى حديثاً، ويتطلب هذا الظن من جانبه - ونحن نشاطره الرأى فيه - المزيد من الدرس والمناقشة.

٧٨- أما الاختلاف الذى يوجد، نسبياً، فى أطوال هذه المدينة فى تقارير المؤلفين القدماء: ديودور، سترابون، بلين، كينت كورس، يوسيفوس، وكذلك هذا التفاوت الهائل فى المقاييس التى لم توضح بدقة فى كتاباتهم، فإنه يلقى بالشك حول تحديدهم للأماكن نفسها.

= مصر صفحات ٥٢ إلى ٦٣، وقد رسمت الخريطة التى ألحقها المسيو شوسار بكفاءة، وهى الخريطة التى أصاب التلف بعض أجزائها، رسمت تبعاً للخريطة التى أنشأها السادة المهندسون العسكريون والمدنيون التابعون لجيش الشرق، والتى كان مقياسها، وهى ملحقة بهذه الدراسة، ٠,٠٠٤ مم لكل ١٠٠ متر.

وقد شاهدنا فى القسم السابق أن معطيات هذه المقاييس تتنوع كما يلى:

| المقاييس | | | | البيانات التى يقدمها المؤرخون القدامى |
|----------|---------|-------|-------|---------------------------------------|
| المحيط | الواجهة | العرض | الطول | |
| ١٠٠ | ٤٠٠ | ١٠ | ٤٠ | ديونور مقدراً بالغلوة |
| ٧٥ | ٢٢٥ | ٨-٧ | ٣٠ | سترابون مقدراً بالغلوة |
| ٨٠ | ٢٢٥ | ٨-٧ | ٣٠ | كينت - كورس مقدراً بالغلوة |
| ٦٠ | ٢٠٠ | ١٠ | ٢٠ | يوسيفوس مقدراً بالغلوة |
| ١٢٠ | ٢٠٠ | ١٠ | ٢٠ | بلين مقدراً بالخطوة الرومانية |

ويظل الأمر على نفس الدرجة من الصعوبة، عندما نحاول أن نكتشف فى هذه البيانات المختلفة طول المقياس المتخذ كوحدة، حيث لم يحدد هؤلاء المؤلفون طول الغلوة، فنحن مثلاً نعرف فى دراسة سترابون عدداً كبيراً من الغلوات المختلفة،

وبمعنى آخر فإن كل المؤلفين القدامى الذين كتبوا عن
الأسكندرية كانوا إما إغريقاً أو رومانين، فهل كانوا على
الدوام يستخدمون مقاييس بلادهم؟ هذا ما قد نجازف بالأخذ
به، ومع ذلك فلم يكن هذا - فيما يبدو - هو ما يحدث على
الدوام، إذ كانوا فى غالب الأحيان، وببساطة شديدة، يأخذون
بالمقاييس المصرية، كما يذكرها لهم علماء مصر، أو أولئك
الذين سبقوهم فى رحلاتهم.

وإذا ما قبلنا، مع الميسو لارشيه، مترجم هيروdot
الحاذق، أن سترابون لم يتحدث إلا عن الغلوة الأولمبية، فسوف
نتبين كيف ستكون المسافات التى يقدمها عن مدينة
الأسكندرية، وعن الأماكن المحيطة بها، باللغة الضخامة لحد
مبالغ فيه^(١). أما الثلاثون غلوة التى يعطيها ذلك الجغرافى

(١) يبين سترابون فى كتابه الثانى طول الغلوة الواردة بجغرافيته
على نحو نستنتج منه أن طول الغلوة عنده يبلغ $\frac{1}{2}$ الميل الرومانى أى
١٢٥ خطوة، أى أن الميل الرومانى يحتوى على ثمانية غلوات إغريقية؛
ومن المعروف أن الميل الرومانى يساوى عادة ٧٥٥ ياردة و ٤ أقدام
وثمانى درجات، ويقربها دانفيل إلى ٧٥٦ ياردة أى أن الثمن يساوى ٣
قدم و ٩٤ ياردة (الترجمة هنا بتصرف وباختصار).

للشارع الكبير الذى يبدأ من بوابة نكروبوليس لينتهى عند البوابة الكانوبية فإنها تساوى ٢٨٥٠ قامة ($= \frac{75}{100} \times ٥٥٥٤$ م)، لكن الخريطة الكبيرة التى رسمت بمقياس ٠,٠٢٥ م لكل مائة متر لا تبين هذه المسافة، ابتداء من البوابة الكبيرة على الميناء القديم، حتى بوابة رشيد إلا ٣٢٢٥ متراً أى ١٦٥٤ قامة وأربعة أقدام. وفى هذه الحالة يظل هناك فرق يبلغ ١١٩٦ قامة أى ١٢ غلوة فى أقل طول من أطوال المدينة.

ويقدر يوسفوس هذه المسافة نفسها بـ ٢٠ غلوة من نفس النوع، أى ١٢٥ خطوة لكل غلوة أى ما يبلغ $\frac{1}{8}$ الميل الرومانى. وبذلك لا يبلغ طول هذا الشارع حسب تقدير هذا المؤرخ إلا ١٩٠٠ قامة أو $\frac{17}{100}$ ٣٧٠٣ مترات أى ما يزيد على طول المدينة الحديثة بـ ٢,٥٠ غلوة إغريقية.

٧٩- ومن هنا نرى أن هذه البيانات لا تتفق كذلك مع بقية المسافات. وقد حاول دانفيل، وهو يسعى إلى تدعيم الرأى الذى رجحه، وهو أن السور الحالى لمدينة الإسكندرية أصغر لحد كبير من سورها القديم، وذلك حين لم يجد فى الخريطة

التي كانت معه لهذه المدينة، المقاييس اللازمة لكي يؤسس عليها، حاول أن يعطى للغلوة الواحدة طولاً لا يمكن بمقتضاه توسيع حدودها. وفى هذا الصدد فإنه يحدد موقع الهبتاستاد، الذى كان لا يزال غير محدد، فى المسافة التي توضحها خريطته بين البرج الشمالى فوق الميناء القديم والبرج الواقع إلى الشرق من شبه جزيرة فاروس على الميناء الجديد. ويحدد هذا الجغرافى هذه المسافة بـ ٥٣٠ قامة، وبقسمة هذا الرقم على ٧ كما تعبر عن ذلك نفس تسمية الهبتاستاديوم. (أى الطريق التي يبلغ طولها سبعة ستاد أى سبع غلوات) فإنه يقدر بذلك قيمة الغلوة التي ينبغى اتخاذها أساساً لتحديد الأطوال الدقيقة لهذه المدينة القديمة بـ ٧٦ قامة.

وينبغى الاعتراف بأنه، إذا كان طول هذه الغلوة الجديدة، لا يرتكز إلا على هذا المعطى وكانت النتيجة خاطئة بقدر ما قد يعتري القاعدة التي تكون قد استخدمت فى تحديدها، حيث إن الخريطة التي يحدد هذا الطول على أساسها غير دقيقة، ذلك أن جسر الهبتاستاد، الذي يربط بين المدينة وجزيرة

فاروس، يظل مفقوداً بشكل تام، وسط كتلة الرمال التي تركزت عليها المدينة الحديثة.

كيف يمكننا إذن أن نتعرف فى واقع الأمر على طرفى هذا الطريق الذى يبلغ طوله كما يذكر هيرتيوس ٩٠٠ خطوة أى ٩ من الميل الرومانى أو ٦٨١ قامة، والذى تفضى نهايتهما كلاهما إلى ميدان يحويه حصن وتقع أمامه قنطرة؟ وقد يكون بمقدورى أن أعتقد أن أسوار الرصيف القديمة، التى تحيط بمنشآت البحرية فى الميناء القديم هى بقايا وأنقاض الهبتاستاد، لكن هل كان هذا الجسر الذى يتجه إلى الجزء الغربى من جزيرة فاروس يتبع خطأ مستقيماً؟ أم تراه أنه كان مقطوعاً مثل ذلك الجسر الذى يتصل اليوم بحصن الفنار؟ هذا ما نجعله، وفضلاً عن ذلك فمن أية نقطة ينبغى أن نبدأ فى تعداد الغلوات السبع؟ هذا أيضاً ما لم نتمكن من معرفته طوال السنوات الثلاث التى احتل الفرنسيون خلالها مصر؛ لكننا نستطيع هنا على الأقل أن نلاحظ المسافة التى تقدمها الخريطة الكبرى للأسكندرية، والتى رسمت بمقياس ٢٥:١٠٠ م لكل ١٠٠ م، بين نفس النقطتين اللتين حددهما دانفيل، واللتين أشرنا إليهما من قبل، فهى تبلغ ٦٦٥ قامة (أى ١١/١٢٩٦ م) أى ٧ غلوات إغريقية، طول الغلوة ٩٥ قامة

أو $\frac{١٦}{١٠٠}$ ١٨٥ م.

٨٠- أما إذا أقمنا أبحاثنا على أنواع أخرى من الغلوات لوجدناها تنطبق على الغلوة المصرية التى يقدرها دانفيل بـ ٥١ قامة أى $\frac{٩٩}{١٠٠}$ متراً.

وهذه هى النتائج التى يعطيها تطبيق هذه الغلوة الصغيرة على الامتداد الحالى للاسكندرية، فقد شاهدنا من قبل أن طول الشارع الكبير، بدءاً من بوابة الميناء القديم حتى بوابة رشيد، كان يبلغ ٣٢٢٥ متراً، أما بخصوص متوسط عرض السور ابتداء من باب البحر المطل على ساحة الميناء الجديد إلى باب العمود فى الجنوب فيبلغ ١٠١٣ متراً. وهذه المقاييس تعطى طولاً قدره ٣٢ غلوة وعرضاً قدره ١٠ غلوات، طول كل غلوة ٥١ قامة.

وأكثر من ذلك، فإننا إذا أخذنا محيط السور الحديث بالتتابع، وبأكبر قدر من التحديد، بفتحات ثلاث مختلفة لبرجل، أطوالها على التوالى ١٠، ٢٠، ٥٠ قامة، كما فعلنا نحن على "كروكى" الخريطة الكبيرة لهذه المدينة، لوجدنا امتداداً قدره ٤٢٥٠ قامة أى ٨٣ غلوة، طول الغلوة ٥١ قامة.

٨١- هذا الانضباط فى تطابق العلاقة بين هذه المقاييس الأخيرة الموجودة على خريطة مضبوطة، رسمت بمقياس رسم كبير هو ٠,٠٢٥ م لكل ١٠٠ م، مع المقاييس التى طبقها سترابون على سور ندعى مع دانفيل أنه هو السور الحديث، يبدو أنه ينهى المشكلة وأنه يحسم أن الغلوة التى حددها هذا الجغرافى اليونانى فيما يمس اتساع الأسكندرية هى الغلوة المصرية الصغيرة ذات الـ ٥١ قامة وليست الغلوة الأولمبية ذات الـ ٩٥، وأخيراً، فإن السور الحالى لهذه المدينة التى ننسبها للعرب سيكون هو سورها فى عهد الإغريق والرومان. ومن الواضح أنه إذا كان هذا الاحساس، وهو منتشر إلى حد ما^(١)

(١) استولى عمرو بن العاصر ، قائد الخليفة عمر، على مدينة الأسكندرية، بعد أربعة عشر شهراً من الحصار، فقد أثناعها ٢٣ ألف رجل، ولم يكن لدى هيرقل امبراطور القسطنطينية، الذى جمع قوات هائلة لنجدة هذه المدينة، وكذلك لنجدة اورشليم (بيت المقدس)، التى كانت فى نفس الوقت محاصرة بواسطة عمر (كذا!)، لم يكن لديه إلا الوقت الذى يكفى لكى يعطى خبر (مقوقس) الاسكندرية سلطات مطلقة للتفاوض، وبعد أن أنصت عمرو فى برود - وكان معسكراً فى ضواحي المدينة - إلى مقترحات المقوقس، أجابه وهو يشير إلى عمود كبير كان أمامهما : « أترى هذا العمود ؟ لن نخرج من مصر إلا بعد أن تكون قد التهمت». وقد كتب، وهو الذى كان قد وقع فى قبضة أهالى الأسكندرية قبل ذلك ببضعة أيام فى إحدى جولاته الاستطلاعية وأقلت لحسن حظه =

لا يجد الأساس اللازم لتأكيد، لأول وهلة، وذلك فيما يتصل بالعلاقة الدقيقة للمقاييس التي للسور الحالى مع المقاييس التي قدمها بعض المؤلفين القدامى فإن المرء مع ذلك لا يستطيع كلية ألا يستفيد مما يذكره المؤرخون العرب، الذين يشهدون بأن عمرو بن العاص قد قلب هذا السور رأساً على عقب، فى حوالى السنة ٢٢ من الهجرة الـ ٦٣٢ من الميلاد، وبأن ابن طولون حاكم مصر، قد أمر بتشييد أسوار جديدة لهذه المدينة بعد ذلك بـ ٢٣٣ سنة، وأن هذا السور الجديد قد

= بفضل مهارة الجندي الذى كان يرافقه، كتب بعد أن استولى فى النهاية على الإسكندرية إلى الخليفة عمر أنه وجد فى هذه المدينة ٤٠٠٠ قصر، وعدداً مماثلاً من الحمامات العامة، و ٤٠٠ سيرك أو ساحة للألعاب، و ١٢,٠٠٠ حديقة، و ٤٠,٠٠٠ يهودى يدفعون الجزية، وقد حطم هذا الغازى البغيض (كذا!) المعابد والكنائس وأمر بإحراق مكتبة سيرابيوم (راجع ما سبق أن أوردناه نقلاً عن جاستون فييت - المترجم) وذك الأسوار ونقل مقر الأمبراطورية الجديدة (!) إلى القسطنطينية التى تسمى حالياً مصر العتيقة.
من كتاب:

Histoire du Bas-Empire, Tome XII Liv LVIII et LIX.

وثمة كثير من المبالغات بالتأكيد فى هذا النص، وعموماً فى كل تاريخ الشرقين فكيف يمكن أن نصدق على سبيل المثال وجود ٤٠٠ سيرك أو ميادين ألعاب، و ٤٠٠ حمام ومثلها من القصور؟

قلص من اتساعها المبدئي إلى النصف^(١)، ونسعى الآن لكى
نقيم الدليل على هذه الشهادات الأخيرة.

٨٢- وهكذا، فإذا تبيننا نحن الغلوة المصرية ذات الـ ٥١
قامة، فإننا لن نجد بعد، هذا الاتساع الذى ينسبه إلى
المدينة، كل المؤلفين القدامى الذين انتهينا من ذكرهم فى
أبحاثنا السابقة.

يقدر سترابون المسافة الواقعة بين الباب الغربى
للأسكندرية وبين مدينة نيكوبوليس الصغيرة^(٢) (بولكى)، والتي

(١) فى العام ٢٦٠ من الهجرة (٨٧٥ من العصر الحديث) أمر ابن طولون
كما يقول المكين ببناء أبراج وأسوار للأسكندرية بالشكل الذى توجد عليه
اليوم. وهذا الحاكم هو الذى أمر بتشيد الجامع الكبير والرائع الذى يحمل
اسمه، والذى يقع إلى الجنوب من القاهرة داخل سور قصر قديم كان يقيم
فيه، والذى لا يزال يحمل اسم قلعة الكيش، وكان هذا القصر يحمى مدينة
الفسطاط من الشمال، وينبغى الظن بأنه فى العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢٤١
من العصر الحديث)، أمر السلطان صلاح الدين، وهو الذى شيد قلعة القاهرة
ببناء أسوار ضخمة لمدينة الأسكندرية.

(٢) يحدد سترابون المسافة من نيكوبوليس إلى الأسكندرية بـ ٣٠ غلوة،
وعلى هذا، فحيث أنه كان لهذه المدينة الأخيرة نفس الطول من البوابة
الكانوبية إلى بوابة نيكوبوليس، فإننا نضيف هنا هاتين المسافتين، بقصد
البدء من نقطة محددة ومعروفة، وهى النقطة من الباب الغربى للأسكندرية، فى
حين يظل موقع البوابة الكانوبية المقابلة، عند الطرف الشرقى غير محدد.

حددنا موقعها فى مكان قصر القياصرة، ب ٦٠ غلوة؛ ويعطينا هذا الرقم ٣٠٦٠ قامة أو ٥٩٦٤ متراً إذا كانت الغلوة تبلغ ٥١ قامة، و ٥٧٠٠ قامة أو $١١١٠٩ \frac{٥}{١١}$ متراً إذا كانت تبلغ ٩٥ قامة؛ على أن المسافة الفعلية التى تعطيها الخريطة الملحقة بهذه الدراسة هى ٤٠٠٠ قامة أو ٧٧٩٦ متراً و ١٥ سم^(١).

ويلاحظ المرء أنه يوجد هنا وهناك فى هذا التقسيم اختلاف يجعل الغلوة المصرية أصغر بمقدار يتجاوز الربع، بينما تظل الغلوة الأولبية أكبر بنفس النسبة على وجه التقريب، حيث سنحصل على أرقام ٧٨ غلوة مصرية، و ٤٢ غلوة إغريقية.

٨٣- وإذا قمنا بنفس الحساب لمسافة الـ ١٢٠ غلوة التى يذكرها نفس هذا الجغرافى ابتداء من البوابة الكانوبية فى مدينة الإسكندرية حتى مدينة كانوب، فسنجد أن هذه الـ ١٢٠ غلوة تعطى ٦١٢٠ قامة بحساب الغلوة الصغيرة ذات الـ ٥١

(١) هذه الخريطة للسواحل المتاخمة إلى الشرق وإلى الجنوب الغربى، قد رسمت بمقياس ١/٥٠٠ م لكل ١٠٠ م، ويعود الفضل فيها إلى المسيو تاسكان Tasquin، الضابط ذى العبقريّة الحربية فى جيش مصر.

قامة، بينما يرتفع الرقم إلى ١١,٤٠٠ قامة بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة للغلوة الواحدة؛ ومع ذلك فقد سبق أن قلنا فى الفقرة ٤١ إن خرائب كانوب تقع على بعد ٢٥٠٠ متر أو ١٢٨٢ قامة، على الساحل، إلى الجنوب الغربى من خليج أبى قير، وإذا بدأنا القياس من بوابة رشيد، وجدناها تبعد بـ ٢٠,٧٠٠ م أو ١٠,٦٢٠ قامة وثلاثة أقدام؛ وعلى هذا فإن الـ ١٠,٦٢٠ قامة تعطى حين تنقص منها ١٢٨٢ قامة ٩٣٣٨ قامة أى ١٨,٢٠٠ متر، وهى المسافة التى تعطىها فى الواقع خريطة هذا الجزء من سواحل مصر.

ونرى هنا أيضاً أن هذين النوعين من الغلوات ليسا قابلين للتطبيق على المسافة التى يشير إليها الجغرافى الإغريقى، لأننا إذا ما قسنا المسافة الفعلية والتى تبلغ ٩٣٣٨ قامة من الأسكندرية حتى خرائب كانوب بـ ٥١ قامة للغلوة فسنحصل على ١٨٣ غلوة مصرية وهو رقم كبير لحد مبالغ فيه، أما إذا قسناها بحساب الغلوة ٩٥ قامة، فسنحصل على ٩٨ غلوة، وهو رقم صغير لحد مبالغ فيه كذلك.

وإذا ما تابعتنا نفس الحسبة لمسافة الـ ٧٠ غلوة والتي أشار إليها بالمثل سترابون ، من باب نكروبوليس إلى شيرسونيسوس برومونتوريوم Chersonesus Promontorium وهو خليج على الساحل، إلى الجنوب الغربى من الأسكندرية، الذى يشغل مكانه حالياً الحصن الصغير التابع للشيخ (العجمى)، فإننا سنجد أن هذه المسافة تبلغ ٣٥٧٠ قامة تساوى $\frac{6}{6958}$ متراً، بحساب الغلوة المصرية ذات الـ ٥١ قامة، وإننا $\frac{1}{665}$ قامة تساوى $\frac{9}{12961}$ متراً، بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة، ولكن المسافة التى تعطىها نفس الخريطة تبين أن تلك المسافة التى بينت قبل ذلك تبلغ ٦٠٧٥ قامة تساوى $\frac{40}{11840}$ متراً بمحاذاة شاطئ الخليج.

وأخيراً، فإننا نرى أن الغلوة المصرية ستكون أكثر صغراً من ذلك، مادامت المسافة التى تعطىها ليست إلا حوالى النصف من المسافة الفعلية مع تقريب يبلغ $\frac{1}{12}$ ، ويمكن أن يكون هذا الاختلاف ناتجاً عن بعض الانحناءات والتعرجات التى كانت تزيد عن طول الطريق القديم بهذه النسبة.

٨٤- بينت للتوفى هذا الفحص، أن الغلوة المصرية كانت بالغة الصغر وأن الغلوة الإغريقية كانت فى المقابل بالغة الطول، لحد لا نستطيع معه أن نجد فى استخدامهما الامتداد الحقيقى للأسكندرية القديمة والمدن المحيطة بها؛ وكما سبق أن قلت إن دانفيل، الذى يشاطرنا هذا الإحساس، كان قد انطلق من قاعدة غير مؤكدة فى أبحاثه حول متوسط طول الغلوة التى وجدها فى نسبة ٤:٣ على الأكثر أو على الأقل مع هذين المقياسين القديمين. وسأقدم فى الجدول الآتى بيانات عن المسافات المقارنة فى استخدام هذه الغلوات المختلفة:

| بيانات عن المسافة الطولية للأماكن | | عدد الفلوات المبينة | العدد بالقامات للفلوات ذات | | المسافات المختلفة للأماكن | | عدد الفلوات باعتبار الفلوات متساوي | | |
|--------------------------------------|---------------------------|---------------------------|-------------------------------|---------|------------------------------|--------|---------------------------------------|------------------|------------------|
| | | | ٩٥ قامة | ٥١ قامة | بالقامة | بالمتر | ٥١ قامة | ٧٦ قامة | ٩٥ قامة |
| الاسكندرية | القديمة | ٣٠ | ١,٥٣٠ | ٢,٨٥٠ | - | - | ٦٠ | $٤٠ \frac{1}{3}$ | ٣٢ |
| الاسكندرية | الحديثة | ٣٠ | ١,٥٣٠ | ٢,٨٥٠ | ١,٦٥٤٤ | ٣,٢٢٥ | ٣٢ | $٢١ \frac{2}{3}$ | $١٧ \frac{1}{3}$ |
| | نيكوبوليس (بولكس) | ٣٠ | ١,٥٣٠ | ٢,٨٥٠ | ٤,٠٠٠ | ٧,٧٩٦ | ٧٨ | $٥٢ \frac{1}{3}$ | ٤٢ |
| من الاسكندرية إلى | كاتب (أبقير) | ١٢٠ | ٦,١٢٠ | ١١,٤٠٠ | ٩٣٣٨ | ١٨,٢٠٠ | ١٨٣ | ١٢٣ | ٩٨ |
| | شيرمونيوس (ممن المجمع) | ٧٠ | ٣,٥٧٠ | ٦,٦٥٠ | ٦,٧٥٠ | ١١,٨٤٠ | ١١٩ | ٨٠ | ٦٤ |

وإذا ما قارنا هذه المعطيات فيما بينها، ومع دلالات المسافات كما أمدنا بها المؤلفون القدامى، فلن نجد سوى علاقات غير متوافقة، وسوف نقتنع، كما بين ذلك المسيو جوسلان Gossellin ، فى أبحاثه عن الجغرافية اليونانية، أن سترابون لم يقدم عن الأسكندرية إلا مقاييس خاطئة، لأنه هو نفسه لم يكن يعرف قيمة الغلوات المختلفة التى قدمها فى جغرافيته لمصر.

وقد أكون أكثر ميلا لتبنى، كمقياس، قيمة؛ الغلوة كما يقدرها دانفيل أى بـ ٧٦ قامة، تساوى ١٣، ١٤٨ متراً، إذ يبدو لى هذا الطول وسطاً نسبياً بحيث أنه يقرب أطوال المسافات عن تلك التى أعطيت - على وجه التقريب - بشكل تخمينى، للأسكندرية القديمة؛ ولكننى سأقف بأبحاثى عند هذا الحد، إذ سيكون من التجاوز أن أسعى لى أضع الأسس لغلوة جديدة، فى الوقت الذى يتبنى فيه العلماء هذا العدد الكبير من الغلوات المختلفة، وفى الوقت نفسه الذى ينقسمون فيه، إلى هذا الحد، حول النظام المترى للقديما؛

لكننى سأكتفى بملاحظة حول هذا الموضوع، هى أن النص الذى انتقل إلينا من المؤلفين القدامى، لابد أن يكون قد أصابه بعض التحوير على يد المترجمين أو الشارحين، بقدر ما ينبغي أن نقتنع بذلك عن طريق القيام بفحص مدروس لجغرافية إيراتوستينوس Eratosthène وبطليموس، ومؤلفين آخرين أقل قدما .

٨٥- يبقى على أن أبرهن على أن السور الحالى الذى ينسب إلى العرب ليس هو نفس السور فى عهد الإغريق، وهذا ما ذهب إليه - على عكس رأى المسيرودى توت M.de Tott^(١) - كل من دانفيل وبوكوك Pococke ونيبور Niebuhr ،

(١) يظن المسيرودى توت (Mémoires sur les Turcs Tome II, p. 180) أن السور الحالى المنسوب للعرب هو نفس سور الإغريق؛ لكن دانفيل (Voyage en Orient, t. 1er p. 493) ، وبوكوك (Memoires sur L'Egypte يذكران على العكس من ذلك ، أنه فى العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢١٢م) أمر خلفاء صلاح الدين بإعادة إنشاء أسوار الأسكندرية، ويقول نيبور (Voyage en Arabie) إن النقوش الكوفية، الموجودة على الأبراج الرئيسية للسور الحالى لمدينة الأسكندرية، تنسب بناءه إلى الحكام العرب.

وسونيني Sonnini ، ومؤلفين آخرين محدثين أشاطرهم نفس رأيهم.

٨٦- أما الخرائب الهائلة التى نجدها فى ضواحي الاسكندرية، وبشكل أساسى على طول الساحل الشرقى للميناء الكبير، وكذلك فى الشمال الشرقى وإلى الجنوب، وفيما بين السور وشواطئ ماريوتيس، فهى قرائن تشهد بأن المدينة كانت تحتل فى الماضى مساحة من الأرض أكبر اتساعاً بكثير. وفى الواقع فثمة نقطة يتفق عليها كل المؤرخين، هى تلك التى تحدد العرض الذى كانت تشغله المدينة، أى فيما بين البحر والبحيرة، إلى الجنوب. يقول كينت كورس « كانت الاسكندرية تشمل فى الواقع، كل الفراغ الواقع بين البحيرة والبحر » وعلى هذا، فإذا كنا فى وضع يسمح لنا بملاحظة امتداد مياه الاغراق الحديثة والقريبة من هذه البحيرة والتى تأتى عن طريق البحر، وأن نلاحظ كذلك خرائب المباني الموجودة على شواطئها، على الرغم من أننا لم نستطع معرفة أين كانت توجد حدودها الأخيرة، وما إذا كان النهر، كما

حدث قديماً، يصب فيها المياه التى تزيد من اتساعها، فإننا على الأقل، نستطيع أن نحددها بربطها بخرائب الأرصفة وأنقاض الحواجز والخزانات أو الصهاريج، التى نجدها على حواف الشواطئ الجنوبية للخليج أو ترعة الأسكندرية.

وقد سبق أن قال سترابون، قبل كينت كورس «إن المرء لم يكن يصل إلى الأسكندرية إلا عن طريق برزخين ضيقين، بينما لا يمكن الوصول إليها من جهة البحيرة إلا عن طريق موانئ النهر» ويضيف هذا الجغرافى «إن النيل الذى يزيد فيضانه عن حجم بحيرة ماريوتيس لا يترك للأسكندرية، عند انحساره، أى جزء من مستنقعات يمكن أن ترتفع منها روائح كريهة وضارة» إذن، فلقد كانت البحيرة، فى حالة المياه المنخفضة، تفرق الأسوار وأرصفة موانئ النهر، وكذلك السور الجنوبى لهذه المدينة.

٨٧- وينبغى كذلك أن نكون أكثر ميلاً للاعتقاد بأن السيرك أو الهيبودروم Hippodrome ، وكذلك المرتفع الذى ينهض عليه اليوم عمود سبتيموس سيفيروس (عمود

(السورى)، كانت كلها تقع داخل المدينة، اللهم إلا إذا كنا نفترض أن كل هذه المواقع والخرائب العديدة التى نقابلها، كانت تشكل جزائر متباعدة داخل مياه ماريوتيس.

٨٨- وثمة دراسة أخرى، يتفق عليها بشكل عام، وهى أن كل الجزء الواقع إلى الشمال الشرقى، خارج السور الحالى، والمطل على الميناء الجديد، والذي كان يسمى فيما مضى portus magnus أى الميناء الأعظم (وهى حالياً الميناء الشرقية)، كان يشكل جزءاً من هذه المدينة القديمة، ولا يدع وصف سترابون، الذى يضع هناك حى بروخيون أو حى القصور، وميناء الملوك، وكذلك وصف هيرتيوس Hirtius الذى يعطيه له فى كتابه عن الحرب الأهلية فى الأسكندرية، لا يدع كلا هذين الوصفين أى شك حول هذا الموضوع.

إن الخرائب الهائلة التى يعثر عليها، والتى تذكر بقاياها بكل المباني التى تتطابق مع هذه الشهادات هى بنفس النظام والترتيب اللذين ينسبهما إليها جغرافيونا. يقول يوسيفوس، الذى كتب تاريخ اليهود فى هذه المدينة، فى حوالى سنة ٧٠.

من الميلاد، إن اليهود كانوا يسكنون فى زمنه جزءاً من حى القصور؛ ويقول سان جيروم، الذى كتب عن نفس المدينة فى حوالى عام ٤٢٠، إن هذا الحى نفسه، والذى كان منفصلاً فى ذلك الوقت عن المدينة، قد أصبح ملجأ لبعض النساك المنعزلين، كما كان مهجوراً تماماً فى عصر سان إبيفان، الذى كان يعيش فى نحو نهاية هذا القرن.

وينتج عن هذه الشهادات التى لا يمكن الطعن فى صحتها، أن السور الحالى للمدينة سور حديث، حيث إن كل الجزء الذى كان مأهولاً للغاية فى عهد البطالمة وحتى نهاية القرن الرابع، والذى يستخدم اليوم كمدفن خاص بالطائفة اليهودية، يظل مهجوراً كلية، وخارج هذا السور نفسه الذى ننسب بناءه إلى الحكام العرب.

٨٩- قلنا فى القسم الأول من هذه الدراسة، الفقرة رقم ٢٠ إن المرء يلاحظ بدهشة، ذلك الاستخدام غير المألوف فى أى مكان آخر، لعدد كبير من الأعمدة التى أدمجت فى بناء جسم أبراج وجدران هذا السور، وأن هذه الأعمدة الموضوعة بشكل أفقى، بين مسافة وأخرى، تسمح برؤية أطرافها على

واجهات هذه الجدران. وإليك الملاحظات التى يمكن استنتاجها من ذلك والتى تأتى لتدعم تحليلنا .

لا يتخيلن المرء إلا أن بناء الأسكندرية قد استطاعوا أن يجلبوا بنققات باهظة ، من الصعيد ، ومن ممفيس ، وهليوبوليس، بل ومن اليونان نفسها، وإيطاليا، هذه الكمية الهائلة من الأعمدة من الحجر الرملى، وكذا الأعمدة الجرانيتية والرخامية، والتى تنتمى إلى أنواع أخرى^(١) لكى يستخدموها فى بناء الأسوار الحصينة، التى التحمت بجسمها هذه الأعمدة، على هذا النحو الغامض، ذلك أنهم بالتأكيد لم يكونوا ليكلفوا خاطرهم كل هذه المشقة ولا أن يتكبدوا كل هذه النفقات فى قطعها وصقلها- الأمر الذى لا يزال واضحاً حتى اليوم، أو الذى كان واضحاً فيما مضى، حيث يتحدث كل المؤرخين القدامى عن هذه القصور، وهذه المعابد، وهذه الأروقة وهذه الشوارع المزدانة بالأعمدة، والتى كانت مثار

(١) يقال إن من الضروري أن كثيراً من هذه الأعمدة المصنوعة من الرخام الأبيض قد جلبت من اليونان أو من إيطاليا، حيث إنه من المعروف أن كل المباني القديمة فى مصر العليا، لا تشتمل إلا على أعمدة حجرية أو جرانيتية، وفضلاً عن ذلك، فإننا لانعرف محاجر للرخام الأبيض فى مصر.

إعجاب كل من زار هذه المدينة؛ كما لا ينبغي الاعتقاد بالمثل، بأن ألوف الأعمدة التى تراها مكسدة، لتشكل أرصفة وحواجز بحرية فى مينائى المدينة الحديثة، قد قطعت مبدئياً لهذا الغرض. أليس من الطبيعى للغاية أن نظن أن هذه المدينة الرائعة - التى أحنى عليها الزمن والتى دمرتها الحروب السياسية والدينية أثناء قرون المسيحية الأولى، والتى انتهى عمرو البغيض (كذا!) بأن قلبها رأساً على عقب، حيث لم تعد تشكل إلا مدينة الانقراض والخرائب عند خلفاء هذا الغازى - قد أعيد بناؤها من نفس مواد أنقاضها؛ وأن ثمة ألوفاً من الأعمدة المحطمة والمقلوبة، والتى لم يعد لها نفع فى تجميل معابد مخصصة لعبادة اندثرت أو لقصور أخرى ومبانٍ عامة، تستخدم فى دعم وتقوية جدران هذا السور^(١)، ونضيف إلى ذلك أن الطابع الذى تحمله عمارة الجدران والأبراج الجميلة

(١) لابد لنا أن نظن أن استخدام هذه الأعمدة التى وضعت على هذا النحو فى جسم الجدران كان له غاية مفيدة، هى منع أو إيقاف سقوط الأجزاء العليا من هذه الجدران فى حالة تصدع أو تقويض الأجزاء السفلية بفعل المنجنيق أو أية آلات حربية أخرى، كانت تستخدم فى ذلك الوقت، أوقات الحصار.

فى الاسكندرية هو - وبشكل مطلق - نفس الطابع الذى تحمله الأجزاء التى ماتزال ظاهرة من السور، وبخاصة قلعة القاهرة، ونتيجة لذلك فإننا نقرر بشكل موضوعى أن سور عاصمة مصر الحديثة وقلعة هذه المدينة، يعود إلى حكام مسلمين، وبصفة خاصة إلى السلطان صلاح الدين الذى أمر ببنائه فى الجزء الأكبر منه، فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر.

٩٠- وهناك ملحوظة أخيرة تأتى لتدعم افتراضنا، تقوم على الشكل الدفاعى الذى للسور ابتداء من البرج المسمى بالبرج الرومانى على الميناء الجديد وحتى باب رشيد، والذى يبلغ امتداده ١,٥٩٠ متراً ٨ ٤ ب قسم ٤ ٨ ١٥؛ ويلاحظ المرء فى

الواقع أن نظام كل هذا الجزء هو أن يدافع عن نفسه ذاتياً ضد المناطق الخارجية التى تحتلها اليوم مقابر اليهود، والتى تقع كما سبق أن بينا فى نفس حى بروخيون القديم أو حى قصر الملوك، ومن جهة أخرى فنحن نعرف أن يوليوس قيصر

كان قد قام بتحسين هذا الحى من بقية المدينة، على نفس نظام قلاعنا، أثناء الحصار الذى تحتم عليه القيام به ضد قوات البطالمة وأهل الأسكندرية؛ لذلك لا يمكن للمرء على الإطلاق أن يستخلص فى هذه الحالة، أن السور الحالى لهذا الجزء من المدينة، كان جزءاً من مدينة الإغريق على أى وجه من الوجوه، حيث إنه قد بنى بنظام الدفاع المضاد أى أنه يصارع ويحارب - على العكس - حى الملوك القديم^(١).

٩١- ويمكن الاعتقاد، تبعاً لما يقوله أحد المؤرخين العرب، وهو ابن عبد الحكم والذى يورده الفرغان فى صفحة ١٥٩، أن هذه المدينة كانت مزودة بثلاثة أسوار بالشكل الذى كانت عليه

(١) لابد أن نكون على يقين من أن هذه المدينة قد قلبت رأساً على عقب، وأن سورها الحالى الذى يعلوه مائة برج، ليس فى جزئه الأكبر، إلا عملاً بالغ الحداثة، حتى أننى تعرفت عند باب رشيد، فى الحفريات التى قام بها المهندسون العسكريون لتغطية هذا الباب، أثناء حصار هذه المدينة فى يولية ١٨٠١، على حصن نصف دائرى تزود عنه من الأمام حفرة، كما أننى تعرفت على طريق مرصوف بالبازلت الأسود على طريقة الشوارع الرومانية، وقد شق هذا الطريق على عمق خمسة أقدام تحت نفس هذا الباب الحديث، وعلى هذا النحو كانت تزدهم شوارع روما. كما نتعرف على ذلك اليوم فى عمود تراجان، وفى قوس سبتيموس سيفيروس وفى أماكن أخرى من عاصمة العالم القديمة هذه.

كل المدن القديمة على وجه التقريب، ومن المحتمل عندئذ أن السور العربي الذي نحن بصددده هو السور الداخلى للحصن القديم الذى على أنقاضه، قام الحكام المسلمون بإعادة بنائه؛ لكن صمت المؤلفين القدامى عن موضوع هذه الأسوار الثلاثة لا يسمح بالتوقف كثيراً عند هذا الاحتمال، الذى لا يمكن أن يعد سوى دعم ضعيف لما نحن بصددده.

٩٢- وأنهى هنا هذه المناقشة التى تؤكد بشكل لانزاع فيه ماقلته من أن السور الحالى، الذى قلص إلى حوالى نصف الاتساع الذى كان عليه فى زمن الإغريق، لا يمكن أن يكون فى الواقع إلا من عمل الحكام العرب أو ربما أباطرة المشرق، ذلك أنه يمكننا أن نستنتج من النص التاريخى الذى أوردناه من حصار الأسكندرية على يد عمرو، أن هذا السور قد تقلص، ولابد، فى جزء منه - عند نحو منتصف القرن السابع - إلى الاتساع الذى له اليوم من ناحية الجنوب، لأن هذا الغازى كان ولاشك معسكراً إلى مافوق مرتفع سبتيموس سيفيروس عندما أعطى هذه الإجابة البالغة الحدة لمقوقس

الأسكندرية: هل ترى هذا العمود؟ لن نخرج من مصر إلا إذا أكلته^(١). ومع ذلك فلا بد أن هذه المدينة كانت قوية للغاية فى هذه الفترة، حيث فقد على أسوارها هذا القائد ٢٣ ألف رجل بعد حصار دام ١٤ شهراً، وإنى لأميل إلى الاعتقاد بأن أول إعادة لبناء سور الأسكندرية، قد تمت قبل وقت قليل من انتهابات هذه المدينة تحت حكم الامبراطورين كلوديوس الثانى وأورليان فى عامى ٢٦٩ و٢٧٥ من العصر الحديث.

٩٣- وبعد أن أوضحنا أن المرء لا يمكنه أن يؤسس على معطيات المؤرخين القدماء، فيما يخص الامتداد المبدئى (للأسكندرية) فى عصر امبراطوريات الإغريق والبطالمة، والرومان، حين حلت الصحراء محل الجزء الأكبر من أرض هذه العاصمة القديمة لمصر، فلا يبقى على سوى أن أبرز المواقع التى حددتها لبعض هذه المباني على الخريطة المرفقة.

(١) انظر الهامش السابق وروده مع الفقرة ٨١ من هذه الدراسة.

ولن أضع فى اعتبارى هنا أن أقيم مناقشة جديدة سعيا للعثور على الشكل الذى كان عليه سور هذه المدينة، والذى يقارنه بلين Pline بمعطف مقدونى إذ ليس لذلك كبير أهمية، وفضلا عن ذلك فلا بد أن نفترض أن نقاشا كهذا سيكون فيه من الحذق أكثر مما فيه من الدقة والتحديد؛ لابد إذن أن أنبه مسبقا أن الخط الذى بينته على الخريطة قد تأسس على تصور الأماكن فى حالة دمارها الحالى أكثر مما هو مؤسس على أبعادها التى قدمها المؤرخون القدماء الذين يصعب أن نوفق بين مقاييسهم المختلفة، ولابد أن القارئ سيقنع بذلك حين يطلع على الأطوال المتنوعة للمقاييس القديمة والحديثة التى بينتها فى هذا الخصوص، على هذه الخريطة.

٩٤- قلت من قبل إننى أعتقد أن حصن الفنار، كان يمثل موقع هذا المبنى القديم، أحد أعاجيب الدنيا السبع وقد تأسس هذا الرأى على شواهد تاريخية ، وعلى البراهين الآتية :

ينسب المؤرخون العرب إنشاء الفئار^(١) إلى الفرعون العاشر مصراييم بن بوصير، وهو نفس الفرعون الذى أسس راكوتيس، كما ينسبونه كذلك إلى الملكة دوليكا Douleka وإلى دارا (داريوس) الفاتح وإلى بطليموس فيلادلفوس، وإلى كليوباترا، وما يقوله هؤلاء المؤلفون عن هذه المقاييس هو بلا شك أمر مبالغ فيه.

ومع ذلك ، فينبغى القول على الدوام بأن هذا المبنى جدير بأن يعد من عجائب الدنيا السبع؛ وقد تحطم الفئار جزئيا عند حوالى نهاية القرن الهجرى الأول فى عهد الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، حوالى عام ٧٠٥ من الميلاد، بفعل خدعة من أحد الأروام كما يذكر المقرئى ، وقد أدت هزة أرضية ، حدثت سنة ١٧٧ هجرية أو ٧٩٣م إلى انهيار جزء من قمته ، وهكذا كان الفئار مبتورا فى سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢م) ، وفى حوالى عام ٢٦٠ هـ (٨٧٣م) أمر أحمد بن طولون بتتويج الفئار بقبة خشبية . ونجد على الواجهة الشمالية ، وهى تلك التى تطل على البحر، نقشا يبلغ طول كل حرف من حروفه ذراعا

Voyage d'Egypte et Nubie, par Norden, t. III édition (١)
de Langlès, p. 162 et. 169, Paris 1801.

وبعرض يبلغ الشبر، وهذه الحروف التى لم يقدم لها شرح ما، كانت ولاشك هى حروف النقش الإغريقى الذى أمر بتنفيذه هناك سوستراتوس عن إكنيدوس Sostrate de Cnide سنة ٢٨٣ ق م ، وقد أدى زلزال أرضى مرعب ، شعر به الناس فى بلاد البربر ومصر وسوريا، إلى تحطيم جزء آخر منه . وفى عام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) تقوضت أعمدة وسقوف الفنار، كما انهار مسجد بنى فيه فى عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٣م) بفعل زلزال أرضى آخر ، أضر بالفنار وبعض أجزاء من جدران أبراج الاسكندرية، حتى أنه لم يكد يبقى شئ من هذا المبنى. وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون، فى السنة التالية، بإعادة بناء المسجد، الذى ظل موجودا حتى زمن المقرئى، فى حوالى نصف القرن الخامس عشر.

ومن جهة أخرى، فإننا نقرأ عند عبد الرشيد أن سليم (الأول) ، فى عام ١٥١٧، قد أمر ببناء مسجد وقصر فى نفس مكان الفنار، الذى كان فى ذلك الوقت قد تخرّب تماما، ولا يزال المسجد والقصر موجودين حتى اليوم ، ويحملان نفس الاسم^(١).

(١) Décade Egyptienne, t, Ier p.237
Mémorie sur l'Egypte, t. II p. 54, Paris, 1800 وكذلك

٩٥ - وسوف ندرك بالتأكيد، تبعا لتفاصيل هذه الأحداث، أن الفنار القديم لم يستطع البقاء فوق الصخرة المسماة الماسة Diamant ، التى تحدثت عنها فى القسم الأول ، الفقرتين ٧،٦ حيث إن أنقاض هذا المبنى الضخم ، الذى قوضته رأسا على عقب زلازل أرضية عديدة ، قد أغصت البحر فى المناطق المجاورة ؛ كما يلاحظ المرء فى الواقع ضحالة المياه فيما حول حصن الفنار، فى الوقت الذى لانجد فيه على العكس من ذلك ، إلا مياه شديدة العمق حول الماسة.

٩٦ - ولا يفوتنى عند الحديث عن الفنار القديم أن أتناول الجزيرة التى منحت اسمها ، والتى كان موقعها موضوعا لمناقشات طويلة بين المؤلفين والجغرافيين المحدثين ، ولن أتناولها هنا إلا لكى أحسم الأمر ، إن كان ذلك ممكنا ، تبعا لما ذهب اليه سترابون، وبفعل المعرفة الكاملة التى حصلت عليها عن مواقع الأماكن. يقول سترابون: إن هوميروس الذى كان قد سافر إلى مصر ، كثيرا ما كان يخلط الأساطير بتاريخه الشعرى، وفى الواقع ، فإنه يمكن الظن بأن هذا المؤلف قد استخدم الأساطير على هذا النحو ، فى تلك الفقرة

التي أدت إلى هذه المناقشات الطويلة ، يقول هوميروس « إن جزيرة فاروس كانت تبعد عن الشاطئ المصرى بمسافة تساوى تلك التى تقطعها سفينة تدفعها ريح مواتية فى يوم كامل^(١) »

إن هذا النص الذى ارتكز عليه خطأ كثير من المؤلفين المحدثين كى يتلمسوا تقدم ترسيبات الدلتا، هو أبعد عن أن يكون قد توضح بدرجة كافية، وهذا هو الفحص الذى يدعم رأى بهذا الخصوص.

إذا لم يشأ المرء أن يفهم من كلمة فاروس ، إلا أنها هى هذه الجزيرة الصغيرة التى كانت تقع بالقرب ، وإلى الشمال الغربى، من راكوتيس ، تلك القرية البحرية التى بنيت عندها مدينة الأسكندرية، فإننى فى وضع يسمح لى بأن أؤكد أن

(١) هوميروس، الأوديسا، الكتاب الرابع، الأبيات من ٣٥٤ إلى ٣٥٧. وقد جاء هوميروس بعد حرب طروادة بـ ٣٧٧ سنة، وهى الحرب التى قامت حسبما يذكر هيرودت فى العام ٣٤٢٤ من العصر الجولياني أو ١٢٨٤ قبل الميلاد.

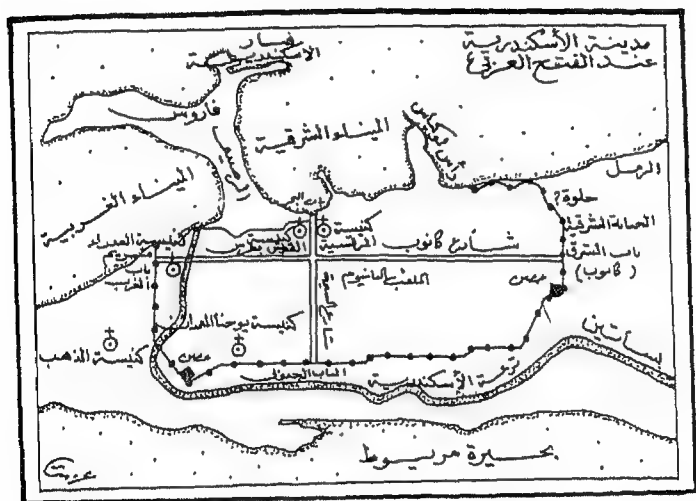
هذا النص عار من كل دقة جغرافية ، حيث لم تكن تبعد هذه الجزيرة الصغيرة عن مدينة الإسكندرية إلا بمسافة ٧ غلوات، وهو ما يساوى ٦٦٥ قامة أى ١٢,١٦٦ مترا وبمعنى آخر، فإن هذه المدينة قد بنيت فوق شبه جزيرة طويلة ، تمتد (أى شبه الجزيرة) من المصب الكانوبى عند الشرق إلى جنوب الجنوب الغربى ،المسافة ١٠ ميريامتر أو ٢٠ فرسخا ، وهى تتكون من سلسلة من الجبال تتصل بمرتفعات يبدو أنها كانت تنتهى إلى البحر الفارغ فى الصحراوات الليبية؛ لكن هذه السلسلة ؛ التى ليست سوى صخرة متصلة من طبيعة حُجرية، ترتفع عادة من ٥ إلى ١٠ إلى ٢٠ مترا فوق مستوى سطح الماء؛ وكانت شبه الجزيرة هذه وكذلك جزيرة الفنار موجودتين فى زمن هوميروس، حيث قد جعل هذا الشاعر بطله مينيلاس ، الأمير الإغريقى ، يرسو فى كانوب، وهى المدينة التى كانت تقع نحو الطرف الشرقى لشبه الجزيرة هذه بالقرب من رأس هيرقل، المسمى حاليا خليج أبى قير، حيث كان ينتهى الفرع الكانوبى ويصب مياهه فى البحر؛ وهكذا فإن جزيرة الفنار

أقل ارتفاعاً عن مستوى أرض كل شبه جزيرة الأسكندرية
أما المسافة التي تفصل بينهما، والتي تبلغ ٢١,٧٢٠ متراً
(١١,١٤٤) قامّة) محسوبة باستخدام حساب المثلثات، وفي
خط مستقيم مع خليج هيرقل، فهي أقل بكثير جداً متراً
الإبحار ليوم ، وهو الذي يقدر بـ ٥٠٠ غلوة أو ٦٠ ميلاً
رومانياً^(١)، أى ما يبلغ ٤٥,٠٠٠ إلى ٤٧,٠٠٠ قامّة تساوى ستة
عشر فرسخاً بحرياً ونصف الفرسخ.

(١) يقدر الإبحار ليوم كامل كما يذكر دولوميان Dolomieu
فى ملخصه حول نفس الموضوع
(Journal de Physique de 1793, t XLII, P. 176) بـ ٥٠٠
غلوة أو ستين ميلاً رومانياً؛ فالـ ٥٠٠ غلوة تساوى ٤٧,٢٥٠ قامّة، وتقدير
الـ ٦٠ ميلاً رومانياً بـ ٤٥,٣٦٠ وهو ما يبلغ ١٦,٥٠ فرسخاً بحرياً،
ويساوى الفرسخ البحري ٢٨٥٣ قامّة، ويقدر الإبحار للنهار وليل بـ
١٠٠٠ غلوة أو ٩٤,٥٠٠ قامّة حسبما يقدر تيوفيل Théophile، كما
يذكر الأستاذ جوسلان Gosselin فى كتابه:
Navigation des aneïens, t. II, p. 38.



الاسكندرية في العهد الاغريقي والرومانى



الإسكندرية عند الفتح العربي لمصر

إذن فعلينا أن نبحث فى مكان آخر عن شبه الجزيرة هذه، ومن الأسكندرية حتى كانوب ، بل وحتى المصب الكانوبى، عن الساحل الذى أراد أن يشير إليه الشاعر الإغريقى فى هذه الإشارة الجغرافية الصرف ، وإلى المسافة التى تفصل جزيرة فاروس عن الساحل المصرى . ولذلك فإذا ماأريد أن يفهم - تبعا للتفسير الذى نورده لبعض العلماء المدققين ؛ نذكر من بينهم المسيو جوسلان - أن مسافة ابتعاد جزيرة فاروس التى تحدث عنها هوميروس قد قدرت على أساس ابتعادها عن إيجبتوس Aegyptus ، وهو الاسم الذى كان النهر يحمله فى ذلك الوقت ، وليس مطلقا عن مصر التى كانت شواطئها فى ذلك الوقت ليست سوى أرخبيل، فإننا نرى أنه ينبغى - والحالة هذه - أن يكون مصب النهر الموجود إلى أقصى الغرب ، وهو المصب الكانوبى - كما كان يسمى زمن حصار طروادة - فى ميتيليس Metelis أو فى هرموبوليس Hermopolis (حاليا فوه ودمنهو) الواقعتين على بعد ١٤ و ١٦ فرسخا إلى الجنوب الشرقى. ومن العسير أن نفسر على خلاف ذلك ، نص الشاعر الإغريقى ، الذى كان

- حسبما يذكر سترابون - على علم ببرزخ السويس الذى كان موجودا فى عصره.

ولكن، هل كان لهوميروس أن ينسى عند حديثه عن جزيرة فاروس هذه أن يتكلم عن شبه الجزيرة هذه ، الطويلة والضيقة والتي تقع أمامه على بعد سبع غلوات فقط ، وتضم مدن كانوب ، راكوتيس ، نيسى ، بلنتين (رشيد) ، ومدينتى تابوزيريس. إلخ إلخ ، اللهم إلا إذا لم يكن يعنى بهذا الاسم شبه الجزيرة هذه نفسها ؛ لكن هذا الصمت عن وجود شبه الجزيرة التى كان ينبغى أن يلحق بها كذلك بقية الجزر ، وكل الساحل الصحراوى المرتفع ، والذى ينتهى جنوبا ببحيرة ماريوتيس ، هذا الصمت لابد أن يحمل على الاعتقاد أن جزيرة فاروس التى تحدث عنها الشاعر الإغريقى ، والذى قال إنها كانت تقع فى أعالى البحار ، لابد أنها قد غرقت ، أو بمعنى أصح أنها لم تكن سوى أسطورة أو جموح شعرى ، إن لم نقل بأنها مبالغة ، حيث إننا لانسطيع مطلقا أن نحملها ، كما رأينا ، على أنها الجزيرة الصغيرة التى أمر بطليموس،

بعد أكثر من ستمائة عام بأن يشيد عليها هذا البناء ، أحد عجائب الدنيا السبع ، والذي عرف باسم فاروس ، وتوجد هذه الجزيرة الصغيرة اليوم ، وقد اتصلت بفعل عمليات ردم الرمال بشبه جزيرة الأسكندرية .

ويخيل إلى أن ماسقته الآن يحسم نهائياً هذه المسألة.

٩٧ - أعود الآن إلى الميناء الجديد الذى يحمى مدخله عند الشرق حصن صغير ، أدى موقعه أمام وفى مواجهة حصن الفنار لأن يشار إليه باسم المنارة أو الموقد Pharillon ولست أظن أن هذا الحصن الصغير يشغل مكان حاجز الموج القديم الذى كان يعرف باسم أكرولوخياس (السلسلة حالياً) لأن هذا الحاجز ولا بد ، قد كان فيما مضى يتوغل كثيراً داخل البحر باتجاه الفنار ، إذا ما اعتمدنا فى ذلك على نص من لوكان Lucain ، إذ يقول هذا الشاعر بأن كليوباترا عندما أرادت اللحاق بقيصر فى الأسكندرية ، قد دخلت إلى هناك عن طريق الميناء الكبير ، بعد أن أدركت حاكم الفنار ، الذى فتح لها سلسلة فناره وتركها ترسو فى ميناء حى الملوك حيث كان يسكن قيصر . ويبدو أن مدخل الميناء الكبير ، كانت تقفله سلسلة كانت لاتزال تستخدم حتى عام ١٥٥٠ كما يذكر

ليون الأفريقى ، الذى كان يطلق على هذا الميناء اسم مرسى السلسلة أى ميناء السلسلة ، وقد رأينا فى القسم الأول ، الفقرة ٤ أن فتحة هذا الميناء الذى يقع بين الحصنين اللذين يذودان عن مدخله ، كانت تبلغ ١٧٨٩ مترا (= ٥ ٩١٧ قامة)، ولسنا نتصور - دون شك - أنه يمكن أن تمتد هذه السلسلة من حصن لآخر بعرض هذا الممر ، بل يمكننا أن نستخلص أن الأكرولولوخياس كان متقدما بكثير نحو الفنار مع خط السلسلة الصخرية وخط أعماق المياه الضحلة ، كما أوضحناه على خريطة الأسكندرية.

٩٨ - وقد رأينا فى هذا القسم ، الفقرة ٧٩ ، أن المرء يظن أنه قد تعرف على اتجاه الهبتاستاد فى الخط الذى يمر بالبرج الشمالى لسور الميناء القديم ، والحصن الواقع فى الميناء الجديد ، بالقرب وإلى الجنوب الشرقى للطريق الذى يغطيه حصن الفنار ، وتماثل هذه المسافة التى تبلغ ٦٦٥ قامة مع تلك التى تبلغ سبع غلوات أولبية ، لكن اتجاهها لا يتماثل مع ذلك الذى يقدمه سترابون ، حين يقول إن

الهبثاستاد كان يبتدىء من القارة ويتجه نحو الطرف الغربى
 لجزيرة فاروس ، بحيث إننى أذهب لحد أن أعطيه نفس
 الاتجاه الذى للبرج الكبير المشرف على ساحة الميناء الجديد ،
 نحو الحصن الصغير الواقع فى مركز الجوين الذى تكونه
 جزيرة فاروس إلى الشمال الشرقى من الميناء القديم؛ أما
 المجرى المائى الهندسى، الذى تحطم اليوم، والذى تحدثنا عنه
 فى القسم الأول، الفقرة ٢٩، والذى قد يكون هو أنقاض ذلك
 المجرى الذى كان ينقل المياه ، حسبما يذكر سترابون، إلى
 جزيرة فاروس عن طريق الهبثاستاد، فيقدم بعض الدعم
 لهذا الرأى ، ومع ذلك فكيف كانت مياه هذا المجرى تعبر
 الميناعين اللذين كانا يسمحان بمرور السفن من خلال
 الهبثاستاد ؟ واضح أن هذا السؤال يقدم بعض الصعوبات
 التى سيكون علينا أن نخوض طويلا لنبحث فى صميمها .

٩٩- ووسط الخرائب التى تحيط بالجانب الشرقى للميناء
 الجديد ، يتعرف الإنسان، حين يترك جسر الأكرولوخياس
 المحطم ، والمسمى حاليا بالمنارة Pharillon ، على حاجز
 بحرى ، لابد أنه كان جزءا من مدخل ميناء الملوك المغلق.

١٠٠- لم نستطع العثور على آثار جزيرة أنترووس Antirrhodos التى كانت تحجب ، كما يذكر سترابون ، مدخل هذا الميناء اللهم إلا إذا كانت هذه الجزيرة قد أحتلت موقع هذه الشعاب الصخرية التى توجد بحذاء سطح المياه، والتى لاتزال توجد عند مركز الميناء الجديد، منعطفة نحو غرب الجنوب الغربى.

١٠١ - وبمحاذاة الساحل إلى الجنوب ، توجد بقايا حاجز بحرى آخر ، يلفت النظر ببنائه الحجرى الذى يتكون من أحجار بالغة الضخامة ، وتعود هذه الخرائب بلا جدال إلى هذا المرفأ أو الممر الذى يسميه بوليب : سيرنكس Syrinx ؛ والذى كان يؤدى إلى البوزيديوم posidium - ذلك الذى حددت مكانه بين تلك الخرائب الهائلة التى توجد فى هذه المنطقة تحت اسم قصر خرب palais ruinè (فى الخريطة). وفى هذه المنطقة أيضا كان يوجد معبد لنبتون، الذى أقام تجاهه مارك أنطونيوبعد أن هجره حزبه ، وهرب مع كليوباترا من خصمه اللدود أغسطس ، قصراً أسماه تيمونيوم

Timonium لكى يعيش فيه منسياً من العالم ، على غرار
Timon تيمون الفظ ، كاره البشر^(*) .

١٠٢- لايمكن للمرء أن يخطئ موقع الكيزاريوم أو
القيصرون Coes-arium أو قصر الملوك ، بسبب وجود
المسلتين اللتين تحدثنا عنهما فى القسم الأول الفقرة ١٩ ،
حسبما يذكر بلين Pline ، الذى يقول « توجد مسلتان ومعبد
لقيصر، ويبلغ طول المسلة الواحدة أربعين ذراعاً ، وقد أخذتا
من آثار الملك مسفيس Mesphees rex .».

١٠٣- وقد سبق أن قلت إن الطول الإجمالى لكل من
هاتين المسلتين، اللتين ذكر بلين أن ارتفاع كل منهما يبلغ
أربعين ذراعاً ، يصل من القاعدة حتى قمته الهرمية ٦٣ ٦
قدما أو ٢٠,٦٢٧ م ، وإذا كانت هذه الإشارة من بلين
pline دقيقة محددة ، وهذا ما لا نستطيع أن نعول كثيراً عليه ،
فإن قيمة الذراع تصل فى هذه الحالة إلى ١٩ بوصة تساوى
٥١٦ , ٠ من المتر.

(*) فيلسوف إغريقى من القرن الخامس قبل الميلاد.

١٠٤ - وقد تصورت أنه ينبغي أن أضع الجمناز
Gymnase فى المكان الذى يجد فيه المرء الأطلال الهائلة
لذلك القصر الخرب المطل على الشارع الكبير ، حيث إن
الصفوف المتوازية من الأعمدة الضخمة ، التى لاتزال موجودة
فى تلك الجهة ، تذكر بالدهاليز المغطاة لهذه المباني ، والتى
كان يبلغ طولها أكثر من غلوة.

١٠٥ - يضع كل من بونامى Bonamy
ودانفيل d'Anville السيراييوم Serapeum تحت جبل
الأنقاض الواقع إلى الشمال الغربى من سور الميناء القديم ،
والذى كان لايزال مقاما فوقه حتى عدة سنوات برج للمراقبة ،
وأظن أن على أن أحدد مكان هذا المبنى ، الذى ذكر سترابون
أنه كان يقع إلى الشرق من التربة عند مرتفع صغير ، بالقرب
وإلى الجنوب من هذا الجبل ، حيث يجد المرء هناك خرائب
هائلة ، لمبنى فخم بنى بالطوب الأحمر يشبه طوب القصر
الخرب بالقرب وإلى الشرق من جامع سان أثنان.

١٠٦ - وأضع فى مستوى عمود سبتيموس - سيفيروس البانيوم panium الذى يضعه كل من بونامى ودانفيل تحت ربوة أو جبل سانت كاترين ، الواقع إلى الجنوب الشرقى للسور الغربى ، حيث إن هذا المرتفع الذى نجد فوقه بقايا بناء ، يتفق لحد كبير مع الوصف الذى يعطيه سترابون للبانيوم ، الذى كان عبارة عن مكان مرتفع ولكن ارتفاعه هذا ليس من فعل الطبيعة وإنما هو من صنع الإنسان ؛ ومن قمة هذا المبنى يستوعب النظر كل المدينة والموانى القائمة على البحر والبحيرة فى سهولة.

وأرأى الآن مدفوعا إلى الاعتقاد بأن العمود الضخم ، عمود سبتيموس - سيفيروس (عمود السوارى) ، إنما هو واحد من تلك الأعمدة التى كانت تشكل جسر الهبتاستاد ، اللذين من تحتهما كانت تمر السفن القادمة من Mangnus portus والذاهبة إلى Eunostus portus ؛ ومما يرجح هذه الفكرة وجود تلك الأعمدة ذات الأحجام المماثلة له أو المتقاربة معه على الأقل ، والتى قال المسيو دى ماييه

Maillet إنه رأها فى البحر عند مدخل الميناء الجديد، لأنه إذا كانت هناك أعمدة كبيرة على هذا النحو، قد أقيمت فوق قاع البحر وتشكل كما يقول سترابون جسرين تمر من تحتها السفن عن طريق الهبتاستاد، فلا بد أن يكون حجمها هائلا لحد غير معتاد.

١٠٧ - ويتحدث سترابون عن سيرك كان موجودا عند مدينة نيكوبوليس الصغيرة (بولكى)، لكننى لم أتين أثرا لذلك إلا بالقرب والى الجنوب من عمود سبتيموس (عمود السوارى)، فهل كان ثمة خطأ فى النص من جانب النساخ الذين ربما كتبوا نيكوبوليس على أنها نيكروبوليس! ذلك أن السيرك يوجد فى الواقع عند بوابة هذه المدينة الأخيرة، اللهم إلا إذا كان هذا السيرك قد بنى فى الأزمنة اللاحقة، كعمل من أعمال أباطرة روما أو سلاطين القسطنطينية.

١٠٨ - إذا كنا قد استطعنا أن نطبق- كما ذكرنا فى هذا القسم، الفقرة ٨٢- واحداً من مقاييس الغلوات المصرية أو الأولبية على مسافة الـ ٤٠٠٠ قامة التى توجد بين الطرف

الغربي لشارع الأسكندرية الكبير والموقع الحالى لقصر
القياصرة حيث حددنا موقع نيكوبوليس القديمة، فلن يخالجنا
أدنى شك حول قيمة الغلوة التى يشير إليها سترابون، حين
يقدر هذا الجغرافى نفس هذه المسافة بـ ٦٠ غلوة، ومع ذلك ،
فعلى الرغم من أننا قد رأينا أن طول كل من هذه الغلوة وتلك
لا يتفق وهذا البيان ، فإننا لن نتردد فى أن نحده عند قصر
القياصرة موقع هذه المدينة القديمة ، وبدعم رأينا هذا تلك
الخرائب الهائلة التى نجدها فى هذا المكان ، وكذلك بعض
التماثيل من الرخام الأبيض التى اكتشفناها هناك ، والتى
استخرجناها من وسط أنقاضها .

١٠٩ - ويمكن أن نستنتج أن قصر القياصرة يعود الى
عصر جوستنيان Justinien ، فهو الذى أمر فى منتصف
القرن السادس ببناء عدد كبير من المنشآت ، فى صحراوات
سوريا وفى جبل سيناء وفى مصر وفى البنتابول الأفريقى ،
ونقرأ عند procope de Cèsarée أن هذا الأمبراطور
قد أمر بإقفال مكان يسمى فيال phiale - يقع بالقرب من

الأسكندرية - بجدران حصينة ، كان يستخدم فى احتواء مخزون الحبوب عن طريق ترعة شيريه Chèrèe التى كانت تحمل مياه بحيرة ماريا ، ويتفق هذا النص تماما مع شكل وموقع هذا الحصن ، الواقع إلى القرب من الأسكندرية ، والذى لم يعد باقيا منه سوى جدران ذات سمك كبير^(١) ، كما سبق أن قلنا فى القسم الأول من هذه الدراسة ، الفقرة ٣٨.

١١٠- أما المقابر التى تحدثنا عنها فى القسم الأول ، الفقرة ٤٦ ، والقسم الثانى ، الفقرة ٧٤ ، فهى بلا جدال من إنجاز شعب كبير العدد ينتمى لسلسلة طويلة من الأجيال ، ويقول المسيو أوليفيه Olivier بهذا الخصوص: إن علينا ألا ننسب لا إلى الإغريق ، ولا إلى الرومان الذين جاءوا بعدهم ، الأعمال الضخمة لهذه الكهوف المقبرية حيث كان هؤلاء وأولئك يحرقون أجساد الموتى بدلا من تحنيطها على طريقة المصريين ، ويستخلص هذا العالم من هذا الرأى أن مدينة الأسكندرية كانت ولا بد هائلة لحد كبير قبل مجيء الفاتح الذى

Procopé de Césarée, traduit du. Grec par (١)
Cousintome II, liv VI

منحها اسمه ، مادام ينبغي ، تبعاً لرأيه ، أن ننسب هذه المنشآت إلى الشعوب التي سكنتها قبل مجيء هذا الحاكم (الإسكندر). وعلى الرغم من أنني قد قلت فيما سبق أن راكوتيس كانت بالضرورة قرية على درجة من الأهمية قبل فتح مصر على يد الإسكندر ، فإننى مع ذلك أذهب إلى عكس ماذهب إليه المسيو أوليفيه ، فأرى أن هذه المقابر تنسب إلى سكان هذه المدينة فى عصرها الإغريقى بل وكذلك فى عهد الرومان ، حيث ترك هؤلاء وأولئك - الإغريق والرومان - للشعوب التي أخضعوها عاداتهم، وبخاصة احتفالاتهم الدينية والجنائزية.

ونحن نعرف ، فى الواقع، أن الرومان لم يهتموا مطلقاً بنشر ديانتهم فى مصر. بل إنهم على العكس من ذلك ، قد أقاموا فى روما معابد لإيزيس وإلهات مصريات أخريات ، وفضلاً عن ذلك فإن المعبد تحت الأرضى الذى يشار إليه على نحو غير دقيق باسم حمامات كليوباترا يرتبط بالنمط اليونانى وليس بالنمط المصرى فى فن العمارة ، بهذا التناسق

والانتظام فى تصميمه ، وبحفره من الداخل حيث هو منحوت فى الصخور.

١١١ - ويضم المسيو أوليفيه . دونما سند يدعم رأيه مدينة نكروبوليس إلى الأسكندرية ، حين يذكر أن التربة التى كانت تتجه من بحيرة ماريوتيس إلى الكيوتوس Kipôtos عبر الـ Eunostus portus ^(١) ، وليسمح لى هذا العالم بأن ألاحظ وجود صخرة قد أكتشفت على مسافة ١٠٠ إلى ١٢٠ مترا من مصب هذه التربة القديمة فى الخليج .. كانت تشكل نوعا من ميناء كان يزود عنه حاجز بحرى ؛ وإذا كانت هذه الصخرة غير طبيعية ، فإنها لاتكفى لدعم رأى سوف يعطى الأسكندرية فى الواقع ، وبالشكل الذى يطلق عليه هذا الاسم، مساحة كبيرة لحد لانهاية له ، وذلك حين يؤدى مايزهد إليه

(١). نشر المسيو أوليفيه، الطبيب، وعضو المجمع العلمى الفرنسى فى عام ١٧٩٤ رحلته فى داخل الأمبراطورية العثمانية ومصر وفارس Voyage dans l' Empire ottoman, l'Egypte et la Perse فى ثلاثة مجلدات، وقد خصص فى مجلده الثالث وصفا مفصلا لمدينة الأسكندرية فى فصل عدنا إليه فى كثير من الأحيان، وكان على التوأم ذا نفع لنا.

المسيو أوليفيه إلى أن نضع مقابر هذا الساحل دون جدال
فى ذلك الجزء من المدينة القديمة ، المسماة نكروبوليس أو
مدينة المقابر.

وهنا أجد من الضرورى أن أنهى الأبحاث التى قمت بها
أو عرضتها فى هذا القسم ، لأنها تكفى بوضوح كى تبين
صعوبة التوفيق بين تقارير القدماء عن الاتساع الحقيقى
لسور هذه المدينة القديمة.

* * *

ملخص

١١٢ - لقد أوضحت على التوالى فى ثنايا هذه الدراسة:

(أ) أن مدينة الإسكندرية الحديثة ، والتي قدمنا وصفا لها ، قد بنيت فوق كتلة من الرمال انتهى بها الأمر أن ربطت القارة القديمة بجزيرة فاروس ، وهى تدين بتكوينها إلى إنجازات مستمرة فى عمليات الردم على سواحل مصر ، وبخاصة إلى هذا الطريق القديم الذى أنشئ بقصد وصل القارة بهذه الجزيرة والذى اتخذ اسمه (الهبتاستاد) من طوله الذى يبلغ ٧ غلوات (ستاد تعنى غلوة).

(ب) أن أرض المدينة القديمة التى نقل إلينا سترابون وصفا لها لم تعد تشكل اليوم سوى أكوام من الأنقاض ، وبعض بقايا شائبة للمنشآت التى صنعت ازدهار الإسكندرية وعظمتها فى ظل امبراطورية البطالمة ثم امبراطورية الرومان.

(ج) أن السور الحالى المسمى سور العرب لا يشكل سوى جزء من السور الذى كان لهذه المدينة فى عهد البطالمة والرومان، ومع ذلك فلا يمكن أن نحدد نحن بدقة حدوده القديمة، حيث لم يقدم لنا المؤلفون الذين نقلوا إلينا أوصافاً

له، سوى إشارات غامضة حول مختلف أنواع المقاييس التى تختلف أطوالها من إقليم لآخر، على الرغم من أنها تحمل نفس التسمية، على النحو الذى يتنوع به الميل والفرسخ عند مختلف شعوب أوربا .

١١٣- وعندما يأسى كل الرحالة المحدثون فى كتاباتهم على ما آلت إليه هذه المدينة الرائعة، التى سوف تنمحي وتزول أطلالها عما قريب من فوق أرضها، وهو نفس المصير الذى آلت إليه منذ قرون كثيرة غابرة خرائب طروادة الإغريق، وأطلال بابل وطيبة وممفيس وتدمر وصور وقرطاجة وروما، تلك الحاكمة القديمة للعالم وأطلال مدينة اليهود المقدسة، وأطلال مدن أخرى اختفت من فوق الأرض، فإننى أكرر مع هذا المؤلف المتميز الذى يبدو وكأنما أراد أن يبعث الحياة فى رماد كثير من مدن خربت بشكل تام فى مؤلفه: الخرائب، أو تأملات حول سقوط الأمبراطوريات :

Ruines, Ou Méditations Sur Les revolutions des empires.

أكرر هذا النص الذى شكل تصديراً لدراستنا هذه :

"لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية؛
وأضحت مذابح الآلهة مرتعاً للزواحف الدنسة.

أه! كم من مجد أفل نجمه
وكم اندثرت من روائع المنجزات؛
هكذا تفنى أعمال البشر، وهكذا تزول الأمبراطوريات
والدول!"

ومع ذلك، فلو قدر للألكسندرية أن تؤول إلى حكم
امبراطورية أو دولة قوية متنورة كما كان شأنها في عهد
البطالمة، فسوف يكون بمقدورها أن تجعل منها مركزاً لتجارة
كل من أفريقيا والهند مع أوروبا.

وإنى في هذا الصدد، أحيل القارئ إلى الآراء التي
قدمها مؤلف دراسة: القناة التي تربط بين البحرين، وهو
المسيو لوبيير، أخى الأكبر، والذي كنت أنا واحداً من معاونيه،
وهى الآراء التي عرضها في دراسته حول مشروعات إعادة
ترميم هذه المدينة، ومع ذلك، فهل ياترى سيكون بمقدور هذه
الآراء، التي أحيل القارئ إليها، أن تتحقق ذات يوم، من أجل

رفاهية سكان مصر ومن أجل ازدهار تجارة الأمم الأوربية.

ملحوظة: يحيل مؤلف هذه الدراسة عند حديثه عن

الطقس ودرجة الحرارة فى الأسكندرية، الفقرة ١٦ وكذلك الفقرة ٥٠، إلى دراسته عن البحيرات البحرية فى مصر، ومع ذلك فلا بد من ملاحظة أن هذا المؤلف لم يضمن دراسته هذه فى كتاب وصف مصر، إلا على شكل ملخص (الدولة الحديثة، المجلد الثانى، ص ٤٦٩ إلى ٤٨٢) أما الدراسة بأكملها والتى تبلغ ٣٥ صفحة بحجم الفوليو، والتى طبعت فى شهر يونيه ١٨١٥، فقد نسخت منها ١٠٠ نسخة أودعت المكتبة الملكية ومكتبة المجمع العلمى ومكتبات أخرى عامة، أو وزعت على عديد من العلماء، ويستطيع من يشاء الاطلاع عليها كاملة، أن يجدها فى الهيئات التى حددتها للتو.

* * *

الفهرس

المقدمة

القسم الأول : الحالة الحديثة للمدينة تحت حكم

امبراطورية الباب العثمانى

القسم الثانى : الحالة القديمة لمدينة الاسكندرية فى

عهد امبراطوريتى الإغريق والرومان،

مع مقارنة هذه الحالة بحالتها الراهنة

القسم الثالث : فحص موثق عن حالة مدينة

الأسكندرية بشكلها القديم مع مقارنتها

بحالتها فى شكلها الراهن



ملخص

General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

رقم الأيداع ١٨٧٣ / ١٩٩١

I.F.B.N

97700 - 1141 - x

الكتاب القادم

مدينة رشيد

